AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY

818
P743YcA1

١١

إدمون جالو

المرأة في حياة أدغار بو

عرض وتلخيص

عبد اللطيف شراره

منشورات دار المكشوف

للمؤلف

روح العروبة (دراسة قومية)

تحت الطبع

في دنيا الجن (ملحمة خيالية نثرية)
حالات إنسانية (مجموعة قصص)
الحجاج : عقل واستبداد (دراسة نفسية)

الطبعة الاولى ، بيروت – لبنان ، آذار ١٩٤٩

جميع الحقوق محفوظة لدار المكشوف

مقدمة المعرب

الرجل ، ايّ رجلٍ ، زعيماً كان او اديباً ، عاملاً او فلاحاً ، ملكاً او صعلوكاً ، في حاجة الى امرأة تفهمه ، ولا يستقيم له ان يحيا حياته بعمقٍ وحرارة ، اي الحياة التي ينشط فيها لتحقيق امكانياته واداء رسالته — ولكل رجل رسالته الخاصة — إلا اذا أوتي « نصيبه الحقيقيّ » من المرأة ! وإنما قلت « نصيبه الحقيقي » لان ثمة نصيباً زائفاً هو اولئك النسوة اللاتي يقتلنَ في الطامح طموحه ، وفي الشاعر قريحته ، وفي المفكر عبقريته ، وفي الحاكم ضميره ، ويجعلن المجتمع ، على غير وعيٍ منهن ، مستنقعاً يعج بالمفاسد ، وتصطخب فيه أواذيّ الحسد والكراهية والصغار .

والمرأة ، اي امرأة ، رفيعة كانت او وضيعة ، غنية او فقيرة ، جميلة او دميمة ، هي ايضاً في حاجةٍ الى رجل يقدرها حق قدرها ، ويصونها من عواصف البلاء ، ويرفعها عن حيوانيتها الضيقة الى سماء الحياة الانسانية النيّرة الجميلة ، المليئة بالحب والتضحية والاخلاص .

نحن اذن تجاه حالةٍ متشابهة الحاجات في موقف كلٍ من الرجل على حدة ، والمرأة على حدة . اي ان الرجل يحتاج ، بتعبير آخر ، الى امرأة تفهمه ، والمرأة تحتاج الى رجل يقدرها ويكرمها . والمشكلة ، بالتالي ، هي ايجاد « الفهم المتبادل » عند كلٍ من الرجل

والمرأة على السواء . فكيف السبيل الى ذلك ؟

نحن نعلم ان الانسان لم يوفق الى ادراك ما يدرك اليوم من الطبيعة واسرارها ، إلا بعد تجارب واحداث ومصاعب وملاحظات تراكمت على مرّ الايام وتعاقب الاعوام ، حتى تجمعت اخيراً وكوّنت شيئاً اسمه « العلم » ، فالعلم ، من حيث هو اداة عمل وتصرف ، تمّ نتيجة البحث والتجربة .

غير اننا نستخدم العلم حيال ظواهر طبيعية خالصة ، اي ثابتة ، لا تتبدل في اسبابها ومسبباتها ، ولا تتغير بتغير الاشخاص الذين يدرسونها . فالتجربة الكيماوية مثلاً غير التجربة الغرامية : تلك تنتهي ابداً ودائماً الى نتيجة محتومة ، ونستطيع اعادتها في كل زمان ومكان ، وهذه تتغير وتتبدل بتغير الظروف وتبدّل الاشخاص . تلك آليّة يمكن الاحتياط لما ينجم عنها ، وهذه روحيّة لا سبيل فيها الى الاحتياط . تلك مقيّدة ، وهذه حُرّة .

ذلك يفضي بنا الى هذه الحقيقة ، وهي انه يستحيل ان ينشأ لدينا علمٌ يكون اسمه مثلاً « علم العلاقات الانسانية » لان هذه العلاقات تظل مدى الدهور عرضة للتقلب والتحول ، ثم لن ينشأ كذلك شيء آخر يصح تسميته « علم الغرام » ، لان الغرام علاقة بين كائنين معينين ، فهو مرتبطٌ اوثق الارتباط بطبيعة كل رجل كوحدة مستقلة ، وطبيعة كل امرأة بمفردها .

لن يكون اذن من شأن الملاحظات والتجارب الخارجية ، في هذا الحقل ، ان تؤدي الى قواعد عامة شاملة مهما تكدّست وتراكمت ، ومهما حُلّلت ورُتّبت ، ومهما بُوّبت وقورن بينها . وسيبقى ، بل سوف يبقى لكل رجل اسلوبه الخاص في علاقاته

بالنساء ، ولكل امرأة اسلوبها الخاص في علاقاتها بالرجال .

ولكن ، أيعني ذلك انه لا سبيل الى المرأة في فهم الرجل ، ولا سبيل الى الرجل في فهم المرأة ؟

اكبر الظن ان هناك سبيلاً واحداً هو ان تفهم المرأة نفسها ، فهي اقدر الناس على ذلك ، ثم ان يفهم الرجل نفسه بنفسه ، وان يستعين كلٌ منهما بالآخر ، في حالة التعارف ، لينتهيا الى نتيجة واضحة .

وافضل ما يساعد المرأة على فهم نفسها هو « اطلاعها » على سِيَرِ الرجال مع النساء ، وسِيَرِ النساء مع الرجال ليتاح لها ان تقارن بين ما تعرفه من شؤون حياتها ونفسها ، وما جرى ويجري في حَيَواتِ الآخرين ونفوسهم .

إلا ان العائق الاكبر في هذه الاطلاعات هو اضطراب التاريخ وعجزه عن الشمول ، وقصوره في التفصيل ، ثم ارتيابنا — وهو حق اكثر الاحيان — في الشهود والرواة ، بحيث لا يستطيع الواحدُ منا ان يطمئن الى صحة ما يقال عن فلان وفلانة ، ولا يُتاح له ان يميز الواقع من الخيال في اكثر ما يطرق سمعه من حوادث واحاديث ، فهو مما يقرأ او يسمع في دنيا موهومة ، يكتنفها الغموض من جهاتها الاربع ، ويسيطر عليها جوٌ مربد من التأويلات والافتراضات والخيالات ، يربدّ الذهن مع ارباده ، وتضيع فيه الحقيقة وراء الغيوم والحجب .

بيد ان التاريخ حفظ لنا سيرة رجلٍ فذٍّ اتصل بطائفة من النساء المتفوقات ، فكان لنا منه ومنهن مجموعة من الوقائع الاكيدة الثابتة ، تُلقي النور على هذه العلاقة بين المرأة والرجل ، وتوضح

اشياء كثيرة تخفانا ، وتمدنا بألف وسيلة ووسيلة للمقارنة والتحليل والتعليل .

وإنما كانت سيرة إدغـار بو من افضل السير الغرامية التي يتناولها الناس ، وأجداها في البحث والتنقيب ، وأوضحها للعـــبرة والاعتبار لان إدغار بو قصّاص ، فلن نضلّ عن تتبع عواطفـه في اكثر ما قصّ علينا ، وهو شاعر قضى ردحاً من عمره ينظم احاسيسه واحلامه وتخيلاته ويبرزها في قالب تتشخص به حقيقتها ، وهو نقّاد اقام من قلمه قاضياً يحكم على الآثار الادبية ، ويميز بين غثها وسمينها ، ويفصل زائفها عن صحيحهـا ، ولذا تحرّى الصدق والامانة في كل ما كتب .

ثم إن اكثر النساء اللواتي اتصل بهن كن من الطبقة الراقية المتعلمة ، ولدينا مذكرات القسم الاكبر منهن ، وذلك مما يضعنـا على صلة مباشرة بحقيقتهن ، ويمكننا من المقارنة والاستنتاج بشكل لا يتاح لنا في حالة اخرى غير هذه الحالة ، إذ ان الموقف هنا — كما يرى القارىء — جليّ من جانبيه ، بيّن في جميع اطرافه ومعالمه .

وإننا لنجد متعة ما بعدها متعة في قراءة قصة او رواية تخيلها كاتب ، ووضع فيها من تصوراته الشيء الكثير ، فكيف بنا حين نطلع على سيرة رجل حقيقي ، مثبتة بالارقام والوثائق والآثـار الادبية والرسائل المخطوطة ؟

لا جرم ان متعتنا تتضاعف ، وإقبالنا يشتد ، وإفادتنا منها تعظم وتزيد لان السيرة الحقيقية تلفت كاتبها الى نواح لم يكن ليلتفت اليها لو كان يكتب قصة ، او يتخيل رواية .

وبعد ، فهذا رجل عاش وأحب ، وقضى ايامه القليلة على اديم هذه البسيطة يرتاد منابع الالهام الكبرى التي لا تغيض ، ويبحث عن السعادة الروحية المثلى في قلب امرأة ، حتى تحولت سيرته الى « اسطورة » ترامى عليها المعلقون والمؤرخون والنقاد والادباء والاطباء والفلاسفة والشعراء ، كلٌ يكتبها كما يشاء ، ويعطي رأيه في جملتها وتفاصيلها ، ويذهب مذهباً في تفسير بعض الظواهر وتأويل بعض التصرفات ، يتنافى مع ما يذهب اليه غيره . وهكذا ... لا يستقر باحث في امره على رأي ، حتى يطالعنا آخرُ برأي يخالفه . وذاك هو شأنه منذ قضى نحبه اي منذ قرن كامل ، الى يومنا هذا ... فسيرته وحدها معرض آراء ، وملتقى مذاهب ، ومجموعة قيّمة لمن يريد ان يفهم المرأة والرجل واسلوبَ البحث التاريخي والنفسي والادبي ، والغرامي على الاخص .

سيجد النساء في هذا الكتاب اجوبة على اسئلة دقيقة معتاصة طالما ترددت في اذهانهن ، سيجدن فيه الحقائق عارية لا يشوبها نصحٌ او توجيه او بحثٌ في الاخلاق والحقوق والواجبات ، مما كان يعكر عليهن صفاء الفكر في درس احاسيسهن ، ووعي كثير من حالاتهن ، وإدراك جملة من مواقفهن النفسية والشخصية والصحية والاجتماعية ، وسيطلعن على اوضاع كن يجهلنها في نفوس الرجال وتصرفاتهم .

وسيجد المؤرخون في هذه السيرة طرائق جديدة في جمع الحقائق والوقائع ، واسلوباً جديداً في درس الوثائق يؤدي الى اكتشاف الباطن وراء الظاهر ، مما يحفزهم على التروّي في تدوين تراجم الرجال ، والنشاط في جمع اكبر عدد ممكن من التفاصيل ،

والالتفات الى آفاق جديدة عاش مؤرخونا دهرهم وهم يجهلونها او يضربون عنها صفحاً كلما ترجموا حياة علم من اعلامنا في الادب او الفكر او السياسة . فنحن لا نعلم اليوم شيئاً عن حياة المتنبي الغرامية مثلاً ، كما نجهل اسرار الكيان الشخصي في حالة سائس كبير كمعاوية ، او مفكر خطير كالغزالي ، او اديب عظيم كالجاحظ ، مع ان الكيان الشخصي وما ينطوي عليه من رغائب ويتفجر فيه من صور واحلام وتأملات وايحاءات هو المنبع الاكبر الجوهري للفعاليات الانسانية .

وسيجد الشعراء في ادغار بو والوان التجارب العاطفية والحيوية التي مر بها ، أفانين في الاستيحاء والتأمل ، تشعرهم بفقرهم المدقع حيال غنى الآخرين بالاحداث والعبر والآفاق الشعرية الخالصة التي تهز وتفتّح وتبعث على الابداع ، وتحمل الشاعر على انتاج البدائع الخالدة .

وسيجد النقاد عند ادغار بو وناقديه ان النقد لا يقف عند تحرّي الاخطاء اللغوية والنحوية ، ولا ينتهي باصدار احكام عابرة على الاثر الادبي ، وانما يغوص وراء الخفايا ، ويتغلغل في صميم الاكوان الروحية والفنية ، ويخلص من جولاته هذه الى إلقاء الانوار على الجمال المدفون ، ونزْع الطلاء البراق عن القبح المموه .

وسيجد القصاصون الذين مارسوا تأليف القصص وعنوا بالبحث فيها وفي مشاكلها ، ان القصة ما كانت لتكتسب ذلك اللون السحري الساحر على يد ادغار الا لما سبقها من تجارب وآلام وحالات نفسية جعلته سيد من كتب قصة في الاعصر الادبية الاخيرة .

وسيجد المجتمع عند بوّ اخيراً ان ثمة رجالاً ونساءً يستحقون ان يوليهم من رعايته ويحلهم من نفسه ، بما يعود عليهم وعليه بالخير العميم والفضل الجسيم ، فكم من عبقري مثل ادغار لم يطعم من دنياه غير البلاء ، ولا ذاق في وجوده غير المرارة ، بينما يعيش غيره ممن تفضلهم البهائم بخدماتها ، وتسمو عليهم الاشجار والنباتات بفضائلها ، في حالة من البذخ والترف ، لو ادركها ادغار وامثاله لاعطوا الحضارة اضعاف ما اعطوا ، وقدّموا لسعادة الانسانية اضعاف ما قدموا .

قلت : ان الذين كتبوا سيرة ادغار بو كثيرون ، والذين علقوا عليها اكثر واكثر . وقد اطلعت على القسم الاكبر منها ، وقارنت بينها ، فوجدت ، بعد الدرس الطويل ، ان كتاب النقادة الفرنسي « ادمون جالو » اوفى ما يكون بالغرض الذي اقصده ، واشمل للموضوع الذي اطرقه .

ذلك بان ادمون جالو قرأ بدوره كل مؤلفات ادغار ، ودرس كل ما كتب عنه ، واطلع على احدث النظريات النفسية والنقدية ، واجال ذهنه النافذ في كل ما صدر عن شاعر اميركا ، وكل ما احاطه ، وخبر المرأة في جميع اتجاهاتها واحوالها ، وعرف ما لا يتاح لنا ان نعرفه من شؤون الادب في اميركا ابان القرن التاسع عشر ، ومذ تم له كل ذلك الف هذا الكتاب الذي اعرضه وألخصه وهو « ادغار بو والنساء » .

ثم ان ادمون جالو يحب ادغار كما أحبه ، ويشعر نحوه بعاطفة هي الى الاجلال والاعظام اقرب ، وان مازجها ضرب من العطف

جعله يأخذه بالرفق عند ما يقع له على هفوة ، وينتحل له الاعذار حين يحمل عليه شانئوه من اجل زلات واخطاء .

ولذا، قدرت ان ادمون جالو اقدر النقاد على فهم ادغار بو اذ يندر ان يحب ناقد اديباً دون ان يفهمه حق الفهم، أو دون ان يشعر معه في كل ما شرد وورد من شؤون الحياة واشجانها ، سيما اذا كان الناقد والمنقود يبعد كلٌ منهما عن الآخر في العصر ، والامة، واللغة ، والوطن ، ولا يربطهما غـــير الفكر الخالص والادب الخالص .

ويضاف الى ذلك ان ادمون جالو لا يبتغي من وراء كتابه عن ادغار بو تأييد مذهب في علم النفس على نحو ما فعلت الاميرة ماري بونابرت ، ولا يهـدف الى شرح نظرية طبيـــة كما فعل « وودبري » ! كل ما يريد ان يوضح لنا ظواهر هذه العلاقة بين المرأة والرجل التي نطلق عليها كلمة « غرام » .

أتراه ادرك غايته ؟

هذا ما نترك للقارىء الحكم به .

بيروت ، ١٠ اذار ١٩٤٩ عبد اللطيف شراره

تصدير

١ – الحب

اذا كنتَ ممن تستهويهم اسرار طبيعتنا البشرية ، ويتأملون سيرَ لوالبها الدقيقة ، فلا بد وان تكون قد لحظتَ ان الحب ، خلافاً للشائع المتعارَف ، يتنوّع بين شخص وآخر ، ان لم يكن في جوهره ، ففي اشكاله على الاقل . او ، اذا شئت بياناً افضل ، وجدتَ ان الكسل الفكريّ يحمل الناس على اعتبار الحب حالةً بلغت من الشمول والانتشار درجة يكفي معها ان نسمّيَها لنعرف فوراً مظاهرها وندرك نتائجها . بيد أني لا استطيع ، من جهتي ، ان ادخِلَ في هذه التسمية عُلاقة جميلٍ ببثينة ، وحب عمر بن ابي ربيعة لثريا ، ولا استطيع ان اجمع على صعيدٍ واحد قيساً وليلى ، وابا نواس وعنان .

ستقولون : القضية اذن قضية اشخاص روائيين عاشوا في خيال الانسانية ، وليست قضية كائنات حية من لحم ودم ، تشبه هذه الكائنات التي نلتقيها في الشوارع ونؤآكلها ونشاربها ونعيش معها !

ثم ماذا ؟! هل تحسبون ان تلك المخلوقات الروائية تختلف كل الاختلاف عن الرجال الذين خلقوها ، وانها لا تدل في كثير ولا قليل على حالات عاطفية صحيحة ؟؟ واذا اكرهتموني على ان ألج معكم حياة المعاصرين ، المشاهير منهم والمغمورين ، وان اطلعكم

على أدق اسرارهم الشخصية ، ألا تضعون حينئذٍ « برتلو » ذلك العالم الكيماوي العظيم الذي قَتَلَ نفسه بعد بضع ساعات من فَقدِ زوجته ، على قدم المساواة ، مع ذلك الحانوتي الذي اطلق النار على خطيبته بدعوى انها ارادت ان تخونه ؟!

الحقيقة هي ان الحب ألصقُ العواطف بالجانب الشخصي الصرف من حياة الانسان ، واكثرها تنوعاً ، واشدها تداخلاً مع اسراره الاخلاقية والصحية ، واعسرها حلاً وتمييزاً ، فهي تتغير بتغير السلالات والعصور ، وحتى بتغير السن عند الشخص الواحد . ولا يقتصر شأنها هذا على الانسان وحده ، وانما نجدها تُخضع الحيوانات لاحوال شتى من الانفعالات والهيجان لا يمكن تعدادها وتمييزها ، فالاسد يتصرّف تحت وطأة الحب غير تصرف الوعل او الخلد ، والبلبل يسلك غير مسلك الضب او السرطان . واذا كان احدنا يظل من هذه الناحية « غابةً مُعتِمة » كما عبّر تورغنيف احسن التعبير ، فذلك راجع الى اننا نجهل دائماً ، حتى في اوثق حالات الالفة ، الفروق الدقيقة التي تفصل عواطفنا الغرامية عن عواطفه .

نحن لا نعني بكلمة « حب » هذه الكمية الثابتة من الرغبات والتأثرات والشاهيات والنزعات الغريزية فحسب ، وانما نعني بها ايضاً هذا التصرف الشخصي ، اي هذه المعادلة المستقلة التي تعطي لتلك الكمية الثابتة قيمتها الذاتية ، والتي تجعلنا نجد ، حين نرجع الى أناسٍ تخيلهم الروائيون ، ان بطلاً من ابطال « استندال » يمثل الى حدّ قريب او بعيد طبيعة استندال ونفسيته ، لا يُشبه في شيء قطّ ، بطلاً آخر عند كاتب آخر .

ولقد كان الخطأ في نظرة الناس للحب اعتبارهم اياه عملية فيزيولوجية بسيطة ، لا تستهدف غير حفظ النوع والابقاء على سلائل الانسان وسائر انواع الحيوان . إلا انه لن يكون ، وإن آل آخر الامر الى الجسد ، كدورة الدم او كالهضم ، اي شيئاً خارجاً عن الوجدان والاحساس ، بل ان هذين سيظلان يرسمان مجراه ويهيئان اهدافه وتقلباته .

اضف الى ذلك ان كثيراً من همومنا واوصابنا ومواقفنا المعنوية من الحياة تخضع وتتأثر بشخص آخر غريب عنا نكاد لا نعرف عنه شيئاً ، بنفس النسبة التي تخضع بها لنا وتتأثر بنا ، فعلينا ، ما دام هذا هو الواقع ، ان نعمل على التقرّب من ذلك الشخص ، وان نتغلب على مزاحمينا في اكتساب رضاه ، وان نزيل الف عقبة وعقبة تحول بيننا وبينه ، وان نستيقن اخيراً من ثقته بصدق العواطف التي يثيرها ، او نتصوّر انه يثيرها فينا . واذا كانت هذه الثقة لا تهم قاطع الطريق الذي يخطف عابرة السبيل ويذهب بها الى الغابة ، فانها ضرورة لازبة لكل امرىء يودّ اكتساب كائن آخر والاستمتاع به على هواه .

وهذا يفسر لنا ايضاً سلوك المرأة نفسها ، فانها ، وهي التي اكرهتها الطبيعة على التقيد بقوانين صارمة ، كما اكرهها المجتمع على اتخاذ اوضاع تتنافى مع الصدق والحرية ، ظلت مؤمنة مدى العصور بصحة الفكرة العامة التي تكونت لدينا عنها ، وهي انها اداة ، او وسيلة ، لحفظ النوع ، فلم يعد الحب ليختلف عند امرأة عنه عند امرأة اخرى ، حتى لَيُخيَّلُ الينا ان غرام المرأة ليس الا وظيفة سهلة تؤديها بكل بساطة ، بينا هو عند شريكها وظيفة مركبة .

غير انه اذا خطر لكاتب ما ان يؤلف تاريخاً ادبياً لعاطفة الحب ، كما فعل الاب بريمون في تأريخ الحس الديني ، لدهش الناس من تنوع الحالات الوجدانية التي انبعثت على يد تلك العاطفة والتي يحسبونها أتفه العواطف وأضألها اثراً ... والحب لا يكون شائقاً ، في عيني من يلاحظه ، الا بالطرق التي يسلكها والاساليب التي يصطنعها ، والتعاريج والعقبات التي يمر بها ويجتازها قبل بلوغ غايته . وغايته هذه التي تكون ، اكثر ما تكون وقتية ، انما تتوقف على الظروف الاخلاقية التي تواكب رحلته اليها .

واذا نحن رجعنا الى اسرار النساء الخبيرات بهذا الموضوع — اعني اللواتي اتخذن مهنتهن اجتذاب الافراد للقيام بعملية الحب البسيطة في الظاهر — والى ما يقرره الاطباء ، اضطررنا الى التسليم بان هذه العملية نفسها تتلبس بتهاويل عجيبة من الصور الملهمة المثيرة ، والتشابيه المذعرة ، والذكريات والانفعالات العفوية الصادرة من اعمق اعماق النفس ، واخيراً ، باجواء مترفة غنية من الانقلابات النفسية الداخلية ، والملاحقات الفكرية الغامضة التي لا يتاح لنا ، في الاعم الاغلب ، تمييز الينبوع الذي تنبع منه .

إن اسلم حب واصفاه واقربه للطبيعة الخالصة يستلزم انتقاءً او اختياراً . والاختيار ، اي اختيار ، عمل مركب ينجم عن انجذابات خاصة ، وميول لا يُسبر غورها ، وتمازجات عاطفية او عصبية ، وتداخلات وراثية ، وهذه كلها ، تقطع الطريق على الفكرة البسيطة التي نفضل الاخذ بها في النظر للحب ، وتطردها من كل ذهن واضح سليم .

ولدينا على صحة ذلك مثل رائع هو : ادغار آلان بو ، ذلك

العبقري المتفوق في كل ما انتج من قصص وشعر وبحث ، ولم تكن عبقريته لتظهر في إنتاجه الفني بمقدار ما ظهرت في علاقاته الغرامية وصلاته المتنوّعة بالنساء ، فان فهمه للحب خاص به لا يشاركه فيه احد ، كفهمه الخاص لتكوين العالم ، كنظريته الخاصة في جمالية القصة ، كأسلوبه الشعري وطريقته في النظم والايقاع .

اما انه شاذ ، وانه لا يمكن اتخاذه اساساً في بناء قاعدة ، وانه لا يصح اتخاذه مثلاً تطّرد على قياسه الامثلة ، كما ورد ويرد على الاذهان ، فهذه قضية خطيرة تحتاج الى درس وتوضيح لانها مغلوطة في وضعها ، مغلوطة في عرضها ، مغلوطة في النتائج التي تنبثق عنها :

اذا كان لا بد من التسليم ان هناك ... في مكان ما من هذا العالم ، إنساناً طبيعياً بكل ما في هذه الصفة من معنى ، وجب علينا حينئذ ان نتخذ ادغار بو نفسه مثالاً كاملاً صحيحاً للانسان اللاطبيعي ، واللاطبيعي هنا غير المريض وغير فاقد الاتزان . بيد اننا لا نستطيع بحال من الاحوال ان نسلّم بوجود الانسان الطبيعي الكامل في طَبَعِيتِه ، ونحن نقع كل يوم على افانين من العجائب العاطفية ، وضروب من الحماقات الغرامية المعقدة ، وأطوار عجيبة من التأثرات والنزعات عند رجال يعتبرون انفسهم ، ويعتبرهم الناس « القدوة » المثلى في استقامة الاخلاق والسيطرة على النفس وخواجلها .

ها نحن نجد عند شلّي الذي يوشك ان يوازي ادغار بو في سمو مثاليته العاطفية ، جملة غير يسيرة من الاهواء المبتذلة ، واقصد بالاهواء المبتذلة تلك التي كان يعانيها في نفس العصر ، رجل مثل

بيرون او بوشكين ، فليس ثمة من يضارع ادغار بو كأنما هو مرجانة يتيمة بين حفنة من الاصداف ، وكأنها خُلقت لتعكس نور نفسها على نفسها مدى اللانهاية ...

ولكن حديثنا في هذا الكتاب ، وكل ما نعرض له من حياة ادغار بو الغرامية يصبح عقيماً ، عديم الجدوى اذا لم يكن القارىء مقتنعاً سلفاً ان كل شخصية انسانية ذاتُ استقلال مطلق ، وان طبعها اصيل لا يبدّل ولا يعوّض ، فكثيراً ما عمل المجتمع على ان يخفف من ميزاتنا الخاصة كأفراد ، وان يسوقنا جميعاً بعصا واحدة ، ولكن الفرد كان يسترجع دائماً حريته ، وما الحب إلا شكل من اشكال هذه الحرية .

٢ – الصداقة الغرامية

عسير علينا ان نغوص في موضوعنا ، قبل ان نتحدث عن تلك النزعة العاطفية الخاصة التي أطلق عليها اسم « الصداقة الغرامية » . لا نريد بذلك ان نوغل في دراسة الدقائق الخفيـــة ، ولا البحث المسهب في مشاكل الحب وتفاصيله ، ولكن لا ندحة لنا عن اثبات وجود حالة من حالات الحياة الغرامية ليست شهوة ولا غراماً ولا مودة ، وانما هي شيء من ذلك كله . ليست مزيجـــاً من هذه العناصر العاطفية وانما هي موقف عاطفي يتوسط مواقف اخرى . وقديماً وصفها « لابروبير » وصفاً دقيقاً اذ قرر انها غير الحب ، وغير الصداقة ، ولكن بين الحب والصداقة .

تأمل اول الحب ، او لاحظ بداية علاقة غرامية ، تجد الرجال والنساء على السواء ، يمثلون فيما بينهم مسرحية الصداقة ، اما عن

احتيال ، واما عن نبل وخفر ، واما رغبة باعطاء النفس من غير اعتراف بهذه الرغبة ، فهم يشبهون ، والحالة هذه ، اولئك الذين يسلكون ، في طريقهم الى قرية معينة ، سبيلاً آخر غير السبيل المعروف المطروق.

والصداقة الغرامية عاطفة قائمة بذاتها ، ولكن لا يمر بها الا بعض الاشخاص . وخطهـــا الرئيسي الذي تعرف به ليس المدة فحسب ، وانما هو كون مدتها — وهي اطول من مدة الحب — تتركز حول الصداقة لا عند الغرام . فاذا افترضنا ان صداقة غرامية عبرت بدور شهوة حادة واشتملت في مجراها على امتلاك جسدي ، فانها تعود بعد ان تنتهي مرحلة العنـاق والوصال الى سابق مرتبتها العاطفية ، كما لو كان الدور الشهواني لم يكن ... بينا يختلف الامر كل الاختلاف اذا كانت الشهوة هي الاصل ، واتخذت الصداقة قناعاً تموه به وجهها .

ولذلك ، لا بِدعَ ان تجد عشاقاً كباراً يحرمون دوماً نعمة هذه الصداقة التي تستطيع وحدها ان تصون عطر غرامهم ، فانهم بدأوا بالغرام لا بالصداقة !

القادرُ على الصداقة الغرامية هو ، اجمالاً ، ذلك الذي يُفضل صداقة شخص على حبه في معاشرته له . واسبـاب هـذا التفضيل تختلف وتتنوع ، فربما كان رغبةً في تطويل امد الحب والصداقة معاً ، وربما كان العشيران يختـاران هذا الزيّ من الحب بعد ان يتبادلا العلائق ويتفاهما فيما بينهما حتى لو كانت الشهوة او التملّك جذبهما اول الامر ، لان هذا الزيّ الغرامي ذو فضـــائل ليست للغرام ، فهو يتكىء على الزمن حين يعثر ، ثم إنه اسلسُ وأمرن

واكثر تنوعاً واقوى على التحمل من الهوى العارم الجياش .

والنساء انواع ، ففيهن من يثرن في قلبك العاصفة ، فلا تُعجب بهن إلا لتستعبدهن ، وترتاب بهن ، وتوقظ فيهن تلك القوى الجامحة التي تنتهي بصواعق الغيرة والهجران ، ثم التوبة والغفران ، ثم غيرة يتبعها هجر تتبعه توبة يتبعها غفران ، وهكذا دواليك... وفيهن اللواتي يجعلنك هادئاً مطمئناً تودّ ان تنظر اليهن دائماً ، وان تستمع لحديثهن ، وان تشاركهن في جميع لحظات حياتهن ، فتجد نفسك لا ترتاح الى التغلب عليهن ، لان شخصيتهن الاخلاقية تستهويك وتجذبك اكثر مما يستهويك ان تغلبهن وتنال لبانتك منهن .

الصديقة امرأة تستطيع ان تعيش كل حياتك معها ، ولديك فيها ما يحملك دوماً على اعزازها . اما الخليلة ، فانها تصبح بعد وقت قصير شبيهة بالمرأة التي كانت امس في متناول يدك ، وبالتي ستنالها غداً .

والحب الجنسي يوشك ايضاً ان يكون كائناً حياً قائماً بذاته ، او هو عفريت يتقاسمه رجل وامرأة ويغدو ، بعد زمن ، كليهما معاً ، فزيدٌ لا يظل زيداً ، وهندٌ لا تظل هنداً . زيدٌ وحده عشيق هند ، وهند خليلة زيد وحده ، فاذا افترقا امداً والتقيا بعده يعود زيدٌ زيداً وتعود هند هنداً :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
انيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ

هذا الانقلاب الذي يحدثه الغرام في نفسية المرء ، هذا الهذيان وهذا الفرح اللذان ينبثقان عنه ، هذا الغليان في التشهيات

واللذائذ الذي يلهبه خوف الهلاك ، ويذكيه شوق التهرب من النفس ، هذا الانعدام في الاستعداد لان يتحمل كل من الطرفين الآخر عندما يحس وطأة الحب ، هذا التهيب الاصم لمن نحب — كلها هي الحالات التي يمر بها العُشاق الحقيقيون ويجنحون اليها .

انهم ليرون كل شيء تافهاً ، مملاً ، حقيراً ، ما عدا هذه المعركة التي يتعبدون بها . والعشاق الذين ساقهم القدر الى مثل هذه الهاوية المظلمة لا يعرفون انفسهم إلا وهم فيها غائرون ، ولا يتأتى للآخرين ان يقربوهم إلا وهم في غمرات هذه الشدة تائهون ، فتراهم حيث رحلوا وانى حلوا ساهين سادرين ، لا ينطوون في انفسهم إلا على صور احبابهم ، ولا يجدون في النساء إلا ما يبعث فيهم الاشمئزاز ويثير الامتعاض ، وكل فتاة لا تتعرى امامهم تبدو لاعينهم اسماً بلا مسمى وكأنها تمثالٌ باردٌ منتصب ، وما السعادة عندهم غير هذه الافراح والآلام والهزائم والانتصارات . وانهم لعلى حق ، فهذي هي سعادتهم الخاصة !

إلا ان هناك نفراً غير قليل من الرجال والنساء الذين ، وان كانوا قادرين على ان يمروا ، كأولئك ، بفوضى الحمّى الشهوانية ، لا يحسنون ان يتركوا حياتهم تنساق في تيارها ، فان في افئدتهم منازل لعواطف اخرى . وقديماً قال جوبر : « كثرة النزعات العاطفية تجعل القلب رحباً . » وهذه الملاحظة ، التي قلّ من يعرفها ، توضح صفحات جمّة من حياة ادغار بو ، وبها نفهم كيف ان الحب والصداقة الغرامية يتقاسمان امرأ من الناس .

ولقد عرف شلّي ، الشاعر الانكليزي الكبير ، الغرام كما عرف الصداقة الغرامية . واذا كانت هاريت وستبروك وماري غودوين

قد اثارتا فيه الاول ، فان اميليا فيفياني وجين ويليمز قد الهمتاه الثانية . بل إن غي ده موباسان ، وهو العاشق الذي لا يرتوي ، والذي كان سرعان ما ينسى الاولى بعد صلته بالثانية، انقاد مراراً الى افياء الصداقة الغرامية .

اما مع ادغار بو ، فسنجد انفسنا تجاه سلسلة من تظاهرات عاطفية تقع بين الغرام والصداقة الغراميـــة ، او بعبارة اصح ، ترتفع على جناح عاصفي من الغرام ، وتحط في نهاية المطاف على حالة من الالفة او المودة ذات طابع صوفيّ خاص . وميزتهـــا الكبرى ، غراماً كانت او مودّة صوفية ، انها مدينة بلونها المتفرّد الفذّ لأغمض ظاهرة واعسرها على الادراك ، ألا وهي ذلك الفهم الشعري ، في جوهره ، لعلائق الانسان بالعالم .

من هو ادغار بو ؟

مات ادغار آلان بو في الساعة الخامسة من سابع تشرين الاول عام ١٨٤٩ .

بعد يومين من وفاته صدرت صحيفة « نيويورك تريبيون » تحمل مقالاً بتوقيع « لدويج » كتبه صديق الشاعر الراحل روفوس غريزولد شنّ فيه على ادغار حملة شعواء أثخن بها سمعته وجعله سبّة في الافواه ، ورماه بكل ما يتخيل من تهم وزرايات ، وبكل ما تنطوي عليه نفسه من لؤم وضغينة نحو الفقيد .

ولم يقف الامر به او الحقد عند هذا الحد ، بل اخذ في جمع آثار ادغار وطبعها ونشرها ، فجاءت في اربعة اجزاء .

في الجزء الثالث منها ، كتب مقدمة كذكرى لصديقه كانت افظع واشنع من مقالة لدويج ، اذ اعاد كتابة قسم من رسائل « بو » يحتمل ان يكون قد لفق بعضها برمته ودسه عليه .

لم يحدث بادىء ذي بدء اي رد فعل لحركات غريزولد الحسود ، واخذت الاوساط الادبية اقواله اخذ المسلمات ، وفي انكلترا على الاخص ، حيث اعتبر غريزولد باعث ادغار وناشر ذكره ، اذ انه كان اول من جمع آثاره وعُني بطبعها .

الا ان الحقيقة تأبى الخفاء مهما بولغ في إخفائها ، فقامت

مسز هويتمان تدافع عن ادغار ، وتنقذ شرفه مما ارتطم به على يد امرىء يدّعي صداقته ، واقتفى خطاها ن. ب. ويليس ، ثم جورج غراهام ، وغيرهما ، ولكن السهم كان قد نفذ ، ولم يُجدِ دفاع ولا تبرير .

ووصلت اصداء هذه المعركة الادبية الخافتة الى مسامع بودلير — وهو الشاعر الذي يشبه ادغار في كثير من الوجوه — فطفق يحدث الافرنسيين عن زميله الاميركي ، وينقل اليهم بعض روائعه ، ويسرد عليهم نتفاً من اخباره ، حتى انتشر صيت ادغار بو في اوروبا كلها ، واشتاق الناس ، وفي طليعتهم النقاد والادباء ، الى معرفة جلية امره ، وتبيّن الحقيقة من غير تحوير او تأويل .

عندئذ نهض ، عبر الاطلنتيك ، رجل اسمه « جون انجرام » واخذ على عاتقه تبديد الشبهات وجمع المعلومات وتمحيص الوثائق والوقائع الى ان اسفرت جهوده اخيراً عن كتاب اصدره حوالى عام ١٨٨٠ ضمنه كل ما وصل الى علمه ، فجاء صفعة لغريزولد ومن لفّ لفّه .

كان من انجرام ان ذهب الى اميركا ، وهناك اتصل باصدقاء ادغار بو وتعرّف الى المقرّبات منه مما جعل للمعلومات التي حصل عليها صفة مؤثرة بالغة . وكان ان اكتشف ، فيما اكتشف ، ان النساء اللواتي احبهن صاحبنا ما زلن الى يومه ذاك على قيد الحياة ، فرآهن واحدة تلو الواحدة وتحدث اليهن ودوّن ذكرياتهن وملاحظاتهن .

رأى إليزا شلتون ، اول غرام لادغار وآخر غرام ، وذكر عنها انها لم تزل متعلقة بذكراه حافظة هواه . والتقى روزالي بو

التي حدثته عن كل ما عندها من ذكريات شقيقها . وزار ماري لويز شيو فأعطته يومياتها التي سجلت فيها خواطرها عهد تعلقها بادغار . وذهب الى ساره هيلين هويتمان فوجدها ترعى في قلبها امانة المودّة الخالدة لادغار وسبحت له بقراءة رسائله اليها . واتصل بمسز ستيلا فسلمته القصائد التي نظمها بو في حبها كما سلمته آخر صورة له ، وفيها يبدو حزيناً كاسف البال تعتمل في نظراته مأساة حياته . واجتمع اخيراً بآني صديقة بو المفضّلة ، تلك التي احتلت من فؤاده ارفع منزلة . وهذي قدّمت لجون انجرام رسائل صديقها ونسخاً من قصائده فيها . اما مسز كليم ، ملاك التضحية ، فقد غابت عن هذه الجوقة ولحقت بصهرها قبل ان يتمكن نقادتنا من الاتصال بها . بيد انه حصل على ما لديها من رسائل .

بعد انجرام وكتابه الحافل عن ادغار بو ، اخذ النقاد يدرسون آثار ذلك الشاعر ويحللون نفسيته على ضوء ما انكشف لهم من حياته . واخذ كلٌ منهم يبدي رأيه ، ويؤيد نظريته — اذا كان ذا نظرية في النقد الادبي او التحليل النفسي — بالرجوع الى بو وسيرته العامة واحواله الشخصية ، حتى تعدّدت في موضوعه الابحاث ، وكثرت حوله التآويل ، واختلطت حقائق امره بالاساطير ، واندست بين هذه وتلك اراجيف لا يمكن تبيُنها ، ولا يتميز احتمالها من وقوعها . فما هي هذه الحياة يا ترى ؟ وكيف كانت ؟ وماذا قدّمت ؟

قد لا يهمك ان تعرف اجداد إدغار بّو ، ولا ان تتعرف الى والديه ، سيما ونحن ندرس الجانب الغراميّ من حياته ، ولكن

الوراثة ظاهرة اساسية في كيان الانسان ، فلا يصح ان نضرب عنها صفحاً حين نواجه حوادث غريبة من الوجهة النفسية كهذه التي نحن بصددها الآن ، والتي تهمنا بمقدار ما يمكن ان نستفيد منها ونعتبر بمجراها في حياتنا العامة والخاصة . وقديماً قيل : « الولد سرّ ابيه » . وشدّ ما ينطبق هذا القول على ادغار حتى لكأن قائله عنى فيه اول ما عنى ادغار ووالده .

كان جدّ ادغار لابيه يحمل لقب « جنرال » ، اي انه كان عام ١٧٧٨ احد الوكلاء المفوضين بالتموين وشراء الاعتدة في جيش التحرير الاميركي الذي انقذ الولايات المتحدة من سيطرة الانكليز ، وهذا الجنرال يتحدّر من البروتستانتيين الاسكتلنديين الذين نزحوا الى ارلندة وتزوجوا من الارلنديات . وإننا لنجد آثار الروح الارلندية ، المعروفة بالتمرّد والعنف والكآبة ، ماثلة في نتاج ادغار . وكان الجنرال بنّو اول من هجر ارض اجداده الى اميركا حيث وُلد له « دافيد » عام ١٧٨٤ وجاء ذا طبيعة منقلبة عنيفة صاخبة لا تعرف الهدوء ولا تتقيد بنظام . ومذ بلغ اشده ، اراد ان يكون ممثلاً ، فانخرط في جمعية للممثلين يجمع اعضاءها اسم « نادي ثيسبيس » . وانضم عام ١٨٠٣ لمسرح الكارلستون . وبعد ثلاث سنوات تزوج من إليزابت آرنولد . وإليزابت هذه لم تكن غير ممثلة عريقة في مهنة التمثيل ، فجدّتها لامها كانت ممثلة ، وامها مثلت اول امرها في كوفنت غاردن ، ثم جاءت مع ابنتها الى اميركا بُغية الاثراء ، ودفعت بها الى المسرح منذ نعومة اظفارها . بيد أنها لقيت من النجاح نصيباً وافراً ، وعُزي نجاحها يومئذ لحداثة سنها ولطف حركاتها . وينبغي ان لا يغرب عن بالنا ان الموهبة

الفنية كانت تنقص تلك الفرق التمثيلية الفقيرة التي لم يكن لها من التجارب إلا ما هو ارتجالي، ولا من البراعة ووسائل الاعلان غير طواف البلاد.

في عام ١٧٩٨ ذهبت إليزابت الى فيلادلفيا تمثل وحدها برعاية مدام سمودن والسيد أوشر، وهي لم تكد تناهز يومذاك الحادية عشرة من سنها. والظاهر ان السيد أوشر المذكور كان نسيب آل بّو فتكون إليزابت قد وُضعت في كنف احد اقاربها، واسم أوشر — على ما يعرف النقاد — اشهر بطل بين ابطال القصص التي ألّفها إدغار.

وفي سنة ١٨٠٣ تزوجت إليزابت من ممثل يدعى هوبكنز قضى نحبه بعد ثلاثة اعوام من اقترانه بها، واذ ذاك تزوجت من دافيد بّو. واذا كنا نجهل عن هذا الاخير كل شيء تقريباً، فاننا نعرف عنها اشياء كثيرة. فقد كانت في صغرها تشخص الادوار الهزلية التي تظهر فيها الحوريات والعفريتات والجنيّات، وتمارس الرقص العجيب في مختلف الملاعب التي تخطر عليها. ها نحن اقتصصنا اول اثر من آثار الخيال الشعري عند ادغار.

بعد مدة، لمع نجم اليزابت لمعاناً رائعاً، واشتهرت برهة من الزمن على انها اجمل ممثلة في اميركا، ونالت نجاحاً بالغاً في تمثيليات شكسبير، فشخّصت اشهر بطلاته المعروفات من كورديليا، الى جولييت، الى دزديمونا، الى اوفيليا. وهذه ظاهرة قيّمة في حياة ادغار، لا نستطيع ان نمر بها غافلين، فان امه مثلت يوماً ما دور كورديليا مع الملك لير، وأوفيليا مع هملت، وجولييت مع روميو، ودزديمونا مع عطيل. وإن في طباع ادغار وآثاره الفنية

تأثراً واضحاً بهؤلاء العشاق الكبار الذين اسبغ عليهم شكسبير من خياله ما زادهم روعة على روعتهم ، وجاء ادغار يمثلهم في حقيقته وواقعه ! ثم اذا لحظنا الصبغة المسرحية التي تصطبغ بها قصص بو من تصوير دقيق للاجواء التي تجري بها الحوادث ، الى ضخامة في الجمل والتعابير ، الى الاسلوب الخطابي في بعض المواقف ، الى غرابة الحالات النفسية التي يفتنّ في إبرازها ، ادركنا مدى تأثره بأبطال شكسبير الذين عاشت امه في محيطهم وآفاقهم وهي به حامل .

ولدت اليزابت ارنولد من دافيد بو ثلاثة اولاد ، الاول : وليم هنري ليونار ، والثاني ادغار ، ابصر النور في مدينة بوسطن عام ١٨٠٩ في التاسع عشر من كانون الثاني ، والثالث ابنة اسمتها روزالي جاءت بها عام ١٨١٠ . ومذ وُلدت هذه الاخيرة هجر دافيد زوجته لاسباب لا تزال مجهولة ، ولم يظهر له اي اثر فيما بعد ، ولم يُعرف ، على وجه التأكيد ، فيما اذا كان قد هجر البيت الزوجي ، او انه مات او قتل او غرق . كل ما نعرف انه اختفى ، ولم يدركه احد على قيد الحياة بعد ذلك التاريخ . وما مضى زمن على اختفائه حتى سرت اشاعة مفادها ان روزالي شقيقة ادغار ابنة غير شرعية . وليس ثمة من دليل حاسم ينفي هذه الاشاعة او يثبتها ، ولكن ادغار كابد عذاباً مراً من هذه الفرضية او التهمة الشائنة ، واضطر في كثير من المناسبات ان يعدّل الارقام ويحوّر تواريخ أسرته ، ليُقنع الاغيار ان والده كان في جانب زوجته حين وافاه اجله . غير ان علامة الاستفهام التي رسمت عند هذه القضية لا تزال وستبقى الى الابد مرسومة ،

وكأنها وجدت لتزيد في آلام ذلك الشاعر .

لجأت إليزابت بتّو في آب سنة ١٨١١ الى ريتشموند ، حيث كانت تتمتع بشعبية خاصة ، ولديها ابنها إدغار الذي بلغ عامين ونصف العام ، وابنتُها روزالي التي لا تتجاوز سنها بضعة اشهر . ولم يكن في طاقتها المالية ان تحتجز جناحاً في فندق ، فأقامت في غرفة مجهزة بعض التجهيز ببعض الاثاث استأجرتها من مدام فيليبس ، وهي سيدة تحترف الازياء والتزيين .

كانت تلك الغرفة قذرةً تنبعث من جوانبها رائحة العفن ، ويظهر قرميدها عارياً بلونه الاحمر الباهت ، وليس فيها من اسرّة غير ركام من اخشاب بالية ، وثمة قنّينة طويلة فارغة تشغل مكان الشمعدان المفقود ، الى كرسيين او ثلاث تعطل ما فيها من قش ، كانت تُنقل بين الجدران الرطبة ، حتى لتحسب ذلك المنزل مقبرة يسكنها احياء .

كانت مدام بتّو مريضة عندما اقلعت الى ريتشموند ، وقد بدأ الداء يشتد عليها منذ الخريف لدرجة كانت تمتنع معها عن متابعة الدور الذي تمثله حين تمثل ، وقد عنيت مدام فيليبس باولادها عناية لا ينقصها الحنوّ ولا تعوزها التضحية . بيد أن تجارتها كانت تحتم عليها ان تلازم مخزنها . ويبدو ان هذه المرأة كانت بارعة في فنها ، لان نساء المدينة الانيقات كن يرتدن محلها ويتزينّ فيه .

وما اقبل آخر الخريف ، حتى دخل السل ، الذي ينهش صدر إليزابت ، في طور خطرٍ سريع ، فانقطعت نهائياً عن التمثيل ، واخذت فرقتها تعمل لحسابها . وكان بدء الشتاء في هذه المرة

ماطراً بشكل لم يسبق له مثيل ففاض النهر ، نهرُ الجيمس ، وطغى على الشارع الذي تسكنه ! تصور الآن نزاع هذه المرأة التاعسة التي هجرها الناس جميعاً ، وفكر بما كان يتردد في نفسها من انها ستفارق الدنيا وتترك فيها اولادها بلا مـــأوى ، بلا معيل ، بلا صديق ، بلا مال ...

دام نزاعها الطويل البطيء حتى الثامن من كانون الاول عام ١٨١١ اذ اصيبت بنزلة صدرية حادة قضت على اثرها ...

في صبـــاح اليوم التالي ، بلا فاصل ، جـــاءت مدام آلان واحتضنت الولدين : إدغار وروزالي ، واحضرت معها لهما كل مـا اورثهما ابواهما : علبة جواهر فارغة ، ودفتر جيب ، وخُصلٌ من شعر دافيد وإليزابت ، وصرّة رســـائل ، وصورة لمرفأ بوسطن رسمتهـا الممثلة الراحلة ، واخيراً رسمُ يدٍ لامهـا . تلك هي التركة التي جاء بها الى الحياة شاعرٌ من اعظم شعرائها ، واظن انها اكثر من تركته هو حين فارقهـا ، وان اورث الانسانيـة كنزاً لا يضاهيه كنز .

كانت مدام آلان امرأة رقيقة تلتهب حماسة ونشاطاً ، وقليلاً ما تستهويها متعة الجسد . بيد انها كانت تنطوي على ضرب من العنف المركّز ، مبطّن بدهشة ساذجة امام الحياة ، وقد بهرهـا جمال ادغار ذلك الطفل اللطيم واحبته من كل قلبها . اما زوجها جون آلان فقد كان ، وهو رجل اعمال قبل كل شيء ، غنياً ، معتبراً ، خشن الطبع ، يمارس التجارة بين اميركا واوروبا ، وعلى الاخص تجارة التبغ . ولكنه لم يكن ، حين تبنى ادغار ،

من اليسر والسعة بالمنزلة التي نالها فيما بعد . والظاهر انه استجاب لرغبة زوجته من غير تحمس شخصي ، اذ كان في الواحدة والثلاثين من سنه يومذاك ، فهو لم يقطع الامل من ان يكون ذا ولد من صُلبه ، او ربما كان يرجو عكس ذلك ، اي ان لا يكون له ولد ابداً . وفي كلتا الحالتين ، ما كان على استعداد لتربية طفل غريب . يُضاف الى هذا ، انه كان لجون آلان ابن وابنة غير شرعيين . ذلك مما قد يدفع بعض الرجال الى رعاية اطفال الآخرين او قد يدفعهم ايضاً ، وهم الذين مرّوا بالتجربة ، الى اتخاذ موقف معاكس ، فلا يميلون بعد الى إعادة التجربة وتذكر مرارتها .

إلا ان السيد آلان اخذ على عاتقه اخيراً تنشئة ادغار ورعايته ، ولم يكن فظاً معه ، وإن اخذه بشيء من الشدة ، او لم يراعِ في امره حرمة احد ، اذ كان يؤدبه بالعصا حين تخرج به حدة الطبع هذا المخرج . وتلك من هنات التاجر الاسكتلندي الممتلىء من قيمته الشخصية ، المحافظ على هيبته في نفوس ذويه والمقربين اليه .

بيد ان الهنة الكبرى في سلوك آلان مع ادغار هي امتناعه عن تبنّيه رسمياً طيلة المدة التي عاشها الطفل في كنفه ، فلم تنشأ بينهما اية رابطة ثابتة صحيحة ، وظلت صلتهما مصطنعة تشوبها شوائب التكلف من الجانبين في كل شاردة من شوارد الحياة . والقصد من ذلك الامتناع واضح : هو ان لا يكون لادغار اية سلطة على آلان ولا على ثروته ، وهكذا احتفظ هذا الاخير بحقه في طرد ربيبه من بيته في أية ساعة يريد ، وهذا ما فعله ...

فاذا جئنا نفكر في ما عسى ان يكتسب الطفل من محيطه البيتي الجديد ، اضطررنا الى اعتبار الاثر القوي الذي احدثته في ذهنه ومخيلته عشرة الزنوج من الخدامين والخدامات الذين كانوا يملأون بيوت ولاية فرجينيا في ذلك العهد . والزنوج ، كما يعرف القارىء ، ذوو عقلية خرافية تعمرها الاشباح والاطياف من كل جنس ولون ، ولديهم من غرائب الطقوس وعجائب العقائد وبدائع الاوهام ما لا قبل لاحد من عباقرة الروائيين ان يتخيل نظائرها او ان تمر بباله اشباهها . وما آدابهم الشفهية التي يتناقلونها من اغان شعبية ، الى قصص متوارثة ، الى امثال سائرة ، الى تأويلات خيالية لظواهر الكون والطبيعة ، الا صور فذة رائعة لما يستشعرون من خوف وذهول وحيرة ! وتلك هي الاحاسيس الغريبة النادرة التي عبر عنهـــا ادغار بو في قصصه ، وتلك هي حركات الروح الساذجة التي نما ادغار في وسطها اول ما نما ، فجاءت تعبيراته الروحية وكأنها صادرة عن حمى من الذهول والرعب والحيرة ...

في عام ١٨١٥ ذهبت اسرة آلان الى إرْوِنْ في انكلترا ، وصحبت معها ربيبها ادغار ، حتى اذا اقبل الصيف دخل مدرسة ابتدائية حيث لقي نظامـاً في التربية اصرم من اسلوب آلان ، فكان فيها تعساً منكداً لدرجة كان يفر معها ليلقى مدام آلان واختها ، ويشكو ما يكابد من معاملة معلميه ورفاقه . هذا وهو في السابعة من عمره . ومما تجدر الاشارة اليه ان اساتذته كانوا يأخذون تلاميذهم الى مقبرة قريبة ، وهنـــاك يطلبون اليهم ، ليمرنوهم على الكتابة ، نقل الكلمات المحفورة على انصاب القبور .

هذه صورة لا نستطيع ان نمرّ بها عابرين ، وإنها لتستوقفنا بما

تركت من اثر في ذهن ادغار ، فقد تعلّم ، اول ما تعلم ، قبل ان يفكر او يتأمل ، ان ما من شيء يدوم على هذه الارض ، وان الانسان وكل ما يعمل الانسان يؤول حتماً الى الفناء . وسيجد القارىء ، كلما زاد اطلاعاً على تفاصيل الاحداث التي احاطت بايام ذلك الشاعر ، ان فكرة الموت لم تبرح مخيلته ، لان شبح الموت كان يرتسم امام عينيه في كل حركة من حركات الوجود تارة عنيفاً يصخب ، وطوراً هادئاً يتسلل ، وآناً مقلقاً يساور ، وحيناً ماثلاً يخيف ، وفي جميع الحالات يبعث الرعب في جوانب نفسه حتى اعتاده اخيراً ، وانتهى من امره معه الى محبته والتعاطف معه . نعم ! احبّ ادغار الموت وهام به لكثرة ما سلبه من اعزّاء ، وظهر له في اجواء . وكان موت امه فاتحة سلسلة طويلة من فجائع ، اذ كان يستعيد صورتها ويتمثل حالتها وهي على فراش الاحتضار ، لدى كل فاجعة ...

في عام ١٨١٧ يتغير المشهد ، فقد وضع آلان ربيبه في مدرسة الأب برانسبي الداخلية ، في ستوك نيو ينجتن ، قرب لندن ، حيث مارس ادغار الحياة في اجواء وصفها بقوله : « إنها خليقة بان تكون للمساجين » . بيد انه لم يشعر معها بالوحشة ولا بالمرارة اللتين استشعرهما في إرون . وكان من اثرها في نفسه ان كتب عنها قصة تصويرية خالدة تحت عنوان « ويليم ولسون » .

وفي الحادي والعشرين من تموز عام ١٨٢٠ رجعت أسرة آلان مع ربيبها الى اميركا ، فكان ذلك اليوم آخر عهد ادغار بانكلترا التي لن يعود اليها ابداً ، والتي حمل لها في قلبه حنيناً كامناً ما انفك يخالجه طيلة حياته . ولا بدع ان يحن اليها وهي

التي حضنت ايام صباه ، وعاش منهـا في حلم دائم غريب عن الاحزان والآلام التي غمرت حياته من بعدها ...

وفي اميركا ، دخل ادغار كلية ريتشموند ، وهناك اظهر من الاجتهاد والرغبة في تحصيل العلم ما لم يظهر به احد من رفاقه . ولم تكن رغبته هذه محصورة في مادة خاصة من مواد المنهاج الدراسي ، بل كان يتلقف العلوم والفنون على انواعها تلقف الجائع للطعام ، دون تمييز بين مادة ومادة . اضف الى هذا الولع بالتعلم ذكاءه الحاد النادر الذي جعله اعجوبة من الاعاجيب في نظر زملائه المتصلين به . فقد كان مدير كلية ريتشموند يباهي بطول باعه في معرفة اللاتينية وادبها وتاريخها ، ويعتز بانه ينشىء طلابه على لغة عصر اغسطس نفسه ثم يتخذ من ادغار مثلاً بما ابدى من مهارة بالغة في تقليده اناشيد هوراس . وذلك هو شأنه في الرياضة البدنية ، فقد كانت مآثره فيها موضع الاعجاب وموضوع الاحاديث اذ استطاع في احدى المرات ان يقطع نهر الجيمس سباحة ، وهو نهر عريض يشطر المدينة شطرين . وان في آثاره الادبية التي تعرض للمغامرات ما يشير الى انه « سبور » من الطراز الاول ، سواء في مقاله عن « ارثر غوردن بيم » او في قصته « نزول الى المالستروم » .

غير ان الظاهرة الاولى والبارزة في طباع ذلك اليافع هي الكبرياء اذ لم يعرفه ولا تعرّف اليه احد إلا كان يشكو عناده وتصلبه وغطرسته ، ويصفه بالعجرفة والتكبر ، حتى اصبح اسطورة عند معارفه في ازدرائه البشر وإعراضه عن الناس ، وهذا ما حمل كثيراً من النقاد على إعذار الرأي العام في تنكره له

طوال الايام التي عاشها .

اما نحن فلا نستطيع ان نقف هذا الموقف ، لان ثمة قاعدة طبيعية تجري مجرى القانون ، ونلمس وجودها وانطباقها في كل ما حفظ لنا التاريخ عن حَيَواتِ الرجال العظام ، يمكننا ان نضع صيغتها كما يلي : كل امرىء ملهم ، اي مدعوٌ للقيام بدور هام شاذ في هذه الحياة ، يشعر سلفاً بقيمة دوره ، كأنما أنزل عليه الوحي . وهذا الشعور يردّه الى حالة فريدة من الكبرياء تختلف كل الاختلاف من الغرور الصبياني المعتاد . وما كان إدغار ليشذ عن هذه القاعدة ، او ليخالف القانون الطبيعي ، بل جاء توكيداً لها ودليلاً على صحتها في كل ما أخذ عليه من هنات ورُميَ به من اتهامات .

عاش إدغار نحواً من ستة اعوام في ريتشموند ، يتنقل في معاهدها العلمية مع تنقلات الاسرة التي احتضنته .

ها هو شابٌ جميل الطلعة ، رحبُ القامة ، ذو عضلات قوية ، لا بالطويل ولا بالقصير ، له عينان رماديتان تحف بها اهداب طويلة تتباعد قليلاً فيما بينها ، وشعر اجعد اسود عميق السواد .

هذه صفاتٌ من شأنها ، اذا اضيفت الى ذكائه ونشاطه ، ان تقرّب صاحبها من القلوب ، وتجعله يجتذب اليه عدداً كبيراً من لاصدقاء ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فقد كان رفاقه وزملاؤه ينظرون اليه ، على الرغم من اعجابهم بمواهبه ، حذرين يتحامون مخالطته تحامياً شبه اجماعي . وكان اجماعهم هذا ، في موقفهم منه ، موضع تعليقات وتأويلات شتى !.. غير ان السبب

الحقيقي المعقول ما زال يفتقر الى استقراء وتمحيص .

كانت ريتشموند عاصمة ولاية فرجينيا ، وكان عدد سكانها يناهز الاثني عشر الفاً ، وقد عرفت بأناقتها بين مدن الولايات الجنوبية، فان مبانيها وكنائسها مبنية على الطراز الاغريقي المحدث. وكانت زراعة التبغ مصدر ثروتها الاكبر . وذلك كله ، قبل الحرب الاهلية التي نشبت عام ١٨٦٠ وتحرر بها عبيد اميركا ، وهذا يعني انه كان باستطاعة الملاكين ان يحصلوا بسرعة فائقة على ثروة فائقة . اما مجتمع ريتشموند فقد كان يجنح الى الاوضاع الارستقراطية ، لان معظم السكان يتحدرون من اسر عريقة في جانب ، ولأن اهالي ولاية فرجينيا يتميزون من اهالي بقية الولايات بكسلهم الترفِ وأناقتهم المتعالية في جانب آخر ، والمفروض في عائلات كهذه ، معجبة بانفسها كل الاعجاب ، ان لا تنسى نسب إدغار بّو ولا حسبه ، فهو لم يكن – بعد كل حساب – غير ابن ممثلَين فقيرين ماتا يائسين معوزين . ثم ان مركزه ، في حياة آلان واسرته ، ظل نابياً شائهاً ، اذ لم يتبنّوْه بشكل رسميّ يحفظ كرامته ، ويُبقي على اعتباره ، فكان الناس يتجنبونه ويُلوون عنه ازراءً ، وكان هو يردّ عليهم باستعلاء عنيف ساحق !

ولكن السبب الذي اودّ ان اتحدث عنه ادقّ من هذه الظاهرة الاجتماعية واعمق ، وهو ان الرجل ، الذي يُفرض فيه ان يكون متفوّقاً ، يفترق باكراً عن عُشرائه والمتصلين به ، اذ يحدث بينه وبينهم خلاف طبيعي له صفة الهدوء والاستمرار ، فهو لا يعترف من جهته انهم اشباهه ونظراؤه ، وهم يشعرون فيه من

جهتهم بهذا الانعزال المعنوي الذي يتكون من حوله وفي نفسه على غير وعي منه ويزيده حياءً على حيائه الطبيعي الاصيل . وهو لا يستطيع ايضاً ان يصرف اهتمامه لما يهتم به سواد الناس ، من مأكل وملبس ومهو وزينة ، ولا يجد فيه الانس الذي يجدونه ، ولا يُقبل عليه بالسهولة التي يقبلون بها عليه ... هناك شيء يمسكه ، ويتركه بمعزل عن المجتمع : لا هو تمرّد كامل ، ولا هو حذر بالمعنى الواعي الكامل ، وإنما هو اعجابٌ شديدٌ بالنفس وليس اكثر . بيد ان انتباهه الداخلي لا يتوجه الى الظواهر التي يتوجه اليها انتباه الجمهور . فاذا اعجب بنفسه ، فلأنه يلحظ فيها ما لا يلحظه الآخرون . ولذا ، كانت تلك القطيعة المرّة الحادة بين إدغار ورفاقه التي التفت اليها الجميع ولم يدركوا اسرارها .

على انه لم يخلُ بتاتاً من اصدقاء ، ولا عاش ساعات عمره كلها متنزهاً في الحقول والغابات ، فقد عرف فيمن عرف شاباً يقال له « إيبينيزر بورلنغ » علمه السباحة ، وكانا يطالعان معاً رواية « روبنسون كروزو » ويتذاكران في الدروس ، ويرسمان للمستقبل البعيد خطط رحلات مشتركة ! وعرف ايضاً شاباً آخر مثل في حياته دوراً هاماً قد يكون اهم الادوار ، هو « روبير استانارد » الذي قاده الى بيت اهله ، وهناك تعرّف الى السيدة جين ستيث ستانارد والدة روبير فاعتلقها وهام بها . وكانت — حسب الظاهر — اول وجهٍ تفتّح عليه قلب إدغار وشارف منه الحب ، ذلك الحب الاليم المفرح العظيم المرهق الرفيع الملهم الذي سيحيا إدغار بعد اليوم كل حياته ، كل لحظات وجوده ، وهو ينشده ويبحث عنه ...

جين استانارد

كيف ينشأ الحب ؟ ومتى ينشأ ؟

مخطىء من يعتقد ان الحب ينشأ عن نمو في حواس التناسل عند الشاب والشابة ، او عن تحرك في الغريزة الجنسية فحسب ، لان الحب معنى متصل اوثق الاتصال بالوعي ، وعي الذات والتيقن من هويتها واستقلالها . فالذي يقول : « انا احب فلانة » ، وهو يعني ما يقول ، إنما يعبر بذلك عن إدراك لجملة من الحقائق التي لا يصل اليها بالحس الحيواني المحض ، ولا يبلغها بمجرد الغريزة ، وإن كان يشعر بسلسلة من التفجرات الداخلية تسبق إدراكه وتدفعه على التفكير ، ومن ثم الى التعبير ، لذلك كثيراً ما ينشأ الحب عن ظروف مؤلمة ، وحالات نفسية واجتماعية مؤثرة مثيرة ، يشعر المرء معها بحاجة ملحة الى الحنان ، الى العطف ، الى البث ، الى كشف مخبآت النفس ، الى التحدث عن الاماني والاحلام والصور التي تراود خياله وتملأ ذهنه .

ثم إن هناك نفوساً تميل بطبيعتها الى الكآبة إما لاحوال شديدة قاسية رافقت الطفولة واحتفظت الذاكرة بقسوتها ، وإما لانطباعات مؤلمة يكون من شأنها توجيه الفكر نحو الجوانب المحزنة من الحياة ، وإما لاضطراب صحي عميق ينعكس اثره على

النفس وترتفع اصداؤه في افكار صاحبه وأحاسيسه . وانه ليكفي ايضاً ، كي يكون الانسان كئيباً ، ان يتأمل النهاية ، نهاية كل عمل وكل جهد وكل بناء ، اذ ينتهي به التأمل حتماً الى الشعور بالفراغ ، ويجد ان وجودنا عبث يدور في فلك من العبث ، وان كل شيء باطل ... باطل الاباطيل ! وهكذا ... يصبح المسرور كئيباً ، من غير عامل اجتماعي او حافز فكري او مؤثر خارجي ، فكيف بمن تفعم الاوصاب حياته ، وتطبق عليه الهموم ؟ !

لا ريب انه سيحاول ما وسعته المحاولة ان يتهرّب من آلامه وكآباته ، وان يجد متنفساً ينشق فيه هواءً خالياً من الآهات ليملأه بآهاته ، وان يلقي بكيانه في فضاء نير رحب يتسع لبلوائه . وما « الحب » إلا ذلك المتنفس ، او ذلك الفضاء الذي اوى اليه ادغار بو . واذا انت تدبرت الاحوال والظروف التي مرت بها طفولة ادغار ، ثم فكرت فيما عسى ان يكون من تأثيرها في نفسيته ، وصلت من تلقاء ذاتك الى الاعتقاد بانه لا بد ان ينشأ كئيباً حزيناً . وهكذا كان ، وهكذا تجمعت كل العوامل التي تخلق الحب من التعاسة المبكرة ، الى الكآبة الحادة ، الى الحس الدقيق المرهف ، الى الفكر الباحث عن مهرب — في نفس ادغار وحياته .

تقول الاميرة ماري بونابرت في كتابها القيم عن ادغار ما خلاصة معناه : « لما كان هذا الشاب قد خسر امه وهو طفل ، وكانت حياته من بعدها سلسلة احزان ، فقد جاء يحب كل امرأة تشعره بعاطفة الام ! »

وتلك هي حسب الظاهر ، حكاية تعلقه بجين استانارد ، فهو لم يعشق هذه المرأة لانها امرأة ، اي مخلوق من لحم ودم ينتمي لجنس آخر غير جنسه ، او لانها حرّكت فيه غريزة عنيفة بدأت تستيقظ في اعماقه . لا ... وإنما احبّ فيها دنيا قائمة في ذهنه ، مثلتها له على ما نظن بشيء من الوضوح ، لانها كانت غامضة كل الغموض ، وكان يشوبها من الشوائب ما لا قِبَلَ لاحد بازاحته ، ألا وهي دنيا امه ، بنظراتها ، بحركاتها ، بتصرفاتها ، بحبها عليه وعنايتها به !

بيد ان الامر ينطوي بعدُ على شيء ادقّ من هذا واعمق ، فان الجنون سيعتري جين استانارد بعد اشهر من تعرّف ادغار اليها ، وستموت على مرأى منه بعد ان شغفته حباً ، كما حدث لوالدته التي قضت مسلولة وأورثته حسرة لا يظهر آخرها حتى يعود اولها ! أيكون وراء هذه الحادثة سراً بعيد الغور ؟ أترى ادرك ذلك الشاعر بما أوتي من حس ان هذه المرأة لن تكون طويلة العمر ، فاجتذبه اليها ما لاح له في ضمير وجودها من تهاويل العذاب المقبل ؟ أيكون قد بلغ من تعلقه بالموت درجة اصبح معها يتعلق بكل وجه يقرب زواله ؟

نحن هنا تجاه « قانون » ثابت اكيد ، وإن لم تتضح لنا صيغته ، ولم نتوصل الى وضع نصّه الحرفي . كل ما نعرف انه موجود ، لا شك في وجوده ، وانه ينطبق بحذافيره ، هو ما دعاه الاغريق « آنانكه » ، والمسيحيون « العناية الالهية » ، والرومانطيقيون « القدر » ، والعلماء « الحتمية » !

لقد كان من امر مدام استانارد مع هذا اليافع الذي جاء به ابنها الى البيت ان شعرت نحوه بعاطفة غريبة هي الى الالفة او الصداقة اقرب . ولا يبعد ان يكون جماله الوهاج قد اخذ من نفسها مأخذه . بيد ان ذكاءه المفرط هو الذي جعلها تقبل عليه وتوليه الثقة والرعاية . ولكن المؤرخين والنقاد لا يتفقون على عدد المحادثات التي جرت بينهما . وهذا لا يهمنا ، لانه لا يزيد شيئاً على الحادث . والحادث ذاته يكشف لنا بصورة لا تقبل الجدل اسلوب ادغار في غرامه الاول ، وهذا كل ما نطلب اليه .

جين استانارد هي التي ألهمت ادغار ما يحتاج اليه من تصاوير يحيا بها ، وينتعش على تصورها . واذا كان النقاد والباحثون قد لجوا كثيراً في درس الناحية الجنسية عند بو ، فانهم اغفلوا ذلك الضرب من « الرصانة » او « التحفظ » النسبي الذي يتميز به العرق السكسوني في هذه الناحية ، اذ لم يكن يدور في خلد ادغار نفسه ان صداقته لآل استانارد ستنتهي بتلك الحدة في حب جين والهيام العارم بها وبكل ما يتصل بها ، دون ان يكون وراء هذا التدله اي تفكير في الجانب الجسدي .

كانت افراح هذا الحب مقتصرة على محادثات تتجالى بها النفوس وتبسط فيها الافكار ، تتبعها نزهات يقرأ فيها ادغار قصائد وصلت اليه من اشعار المتقدمين والمتأخرين ، ويصغي كالناسك المتعبد لتعليقات جين مفتوناً مأخوذاً ، فلا يعرف كيف مضى الوقت ، ولا يشعر الا وهو عائد وحده الى بيت آلان يستجمع في نفسه صورة هذه المرأة الفاتنة التي كانت الى لحظات خلت ملء ارضه ونفسه وسمائه .

غير ان جين كانت تنحدر في حياتها العقلية رويداً رويداً نحو المأساة اذ طفقت اعراض الخبل تساورها ، فكانت تعيد على مسمعه في حالاتها المظلمة الواناً من الكلام الغريب الذي لم يسمع به احد ولا يفهمه احد ، وكان يطلع منها على شذوذ في التصرف يتزايد كل مرة ، الى ان اخبروه ذات يوم انها وقعت مريضة وان لا سبيل الى شفائها . فلم يصدق ان امرها من الشدة بالوصف الذي يصفون . الا انه ما عتم ان استوثق من الخبر بنفسه ، وكان تأثره بالغاً من المرارة وحدة الالم حداً لا يدرك . وما هي ، بعد هذه المقدمات المفاجئة ، الا ساعات قصيرة ، قضت جين على اثرها .

وانه لمن المدهش حقاً ان تتلاقى هاتان المصادفتان : ان يحب شاب ، اول احتكاكه بالحب ، امرأة تنتهي حياتها بالجنون ، ثم ان يكون هذا الشاب ، في مستقبل ايامه ، اول كاتب عالمي عني عناية خاصة بدراسة الانحرافات العقلية وما ينجم عنها من صور واحاسيس وخواطر .

ليس ثمة من داع للتردد في الجزم بان تأثير جين استانارد على ادغار بو ومستقبله هو الرابط بين تينك المصادفتين . فقد بلغ من حزن ادغار على مدام استانارد ان شهد الناس كلهم سكوته ووجومه وغيبوباته التي كان يستغرق فيها ساعات وساعات ، حتى لا يمكن استبعاد هذا المعنى وهو : ان ادغار احب الجنون لانه كان يحب من ماتت به .

وكان من شأنه ، بعد موتها ، ان يذهب ، اكثر الليالي ، الى مقبرة ريتشموند يجلس عند قبرها معظم السهرة او كلها ساكتاً

واجما ، ثم يعود من حيث أتى ، وقد امتلأ بغريب الاحاسيس ، وانتهى الى غريب الافكار ، واستجمع غريب الصور ، ليصوغ كل ذلك في قصيدة او قصة .

تلك هي الغاية الحقيقية من حبه لامرأة مثل جين استانارد : ان يتشبع بالاجواء التي تلد الفن . وما ذلك عن سابق تصور وتصميم كما قد توحي كلمة « غاية » ، وإنما هي نزعة طبيعية في ذات الفنّان ان يقف مواقف تبدو لنا مسرحية مصطنعة ، وما هي في شيء من ذلك ، كذهابه مثلاً الى مقبرة ، او ارتمائه على اقدام امرأة ، او طوافه في غابة ، او ما اشبه ... واذا انت اعتبرت الطقوس الدينية والحركات التي يعبر بها المؤمنون عن ايمانهم وخشوعهم وتعبدهم ، ثم نظرت الى تنوعها وتعددها وجدتها تأخذ صفة مسرحية واضحة . وذلك يدل ، فيما يدل ، على ان الانسان يتحوّل ، رغماً عنه ، الى ممثل مسرحي ، كلما هزته عاطفة قوية ، او استأثر به ولع عنيف .

وكان من ولع ادغار بالسيدة استانارد التي افترقت عنه افتراقاً ابدياً ، ولما يمضِ على تعرفه اليها إلا بضعة اسابيع ، ان خلده بمقطوعة شعرية رائعة ، سمّاها فيها هيلين ، وصار اسمها بها من النسيان . وهذي هي المقطوعة :

الى هيلين

هيلين ! جمالكِ في روحي شبيه بتلك المراكب النيسية [١] القديمة التي تحمل الشريد المجهد الهائم بنعومة ،

١ نسبة الى « نيس » وهي مدينة كانت من قبل ايطالية وهي اليوم افرنسية .

على بحرٍ فواحٍ معطار ،
الى شاطىء موطنه الامين !
شعرُكِ الزنبقي ، ومحيّاكِ الصبوحُ المهاب ،
وهذه الملامح التي جعلتكِ حوريةً ،
أقلّتني ، عبْر بحار اليأس التي ارهقت مجذافي ،
الى اهلي ومنزلي ، الى
مغاني اثينا المجيدة ، وروما العظيمة .

هناك ! امام الكوة المؤتلقة لذلك الشباك ،
هناك ! أراكِ واقفةً وقفة التمثال ،
وفي يديكِ مصباحٌ من ياقوت .
آه حبيبة الحب نفسه ، تتراءين لي في تلك الربوع ،
تلك الربوع التي طهرُت فكانت هي الارض المقدّسة .

وقد علّق استاذ الرمزيين الاكبر الشاعر استيفان ملارمه الافرنسي على هذه المقطوعة بقوله : « إن في هذه المقاطع من الطلاوة وانسجام الصورة ما لا يوفق الى مثله غير القلة الافذاذ من الشعراء . وانها لتقيم البرهان على وجود ذلك المعنى الذي لا يتاح لنا التعبير عنه إلا بهاتين الكلمتين المتناقضتين « التجربة الفطرية » .

الميرا رويستر

لم تكد جين استانارد تقضي نحبها حتى وقع إدغار في هوى جديد، او ربما كان كوبيدُ اصابه بسهم جديد في إبّان اصطراع تلك المسكينة مع شياطين الجنون.

ولقد كان طبيعياً، في حياة إدغار، ان يحب عدة نساء دفعة واحدة وفي وقت واحد، وذلك لان الباعث عنده على الحب رغبتُه الملحة في الصداقة الروحية الممتعة، اكثر مما هو نَهَمٌ جسديّ ينبع من الغريزة العمياء وينتهي الى وحشة الفراغ ...

وهنا، لا مندوحة لنا عن ان نجلوَ هذه النقطة التي ذهب النُقّاد في تأويلها يميناً وشمالاً، وحسبوها دليلاً ناهضاً على تفسخ شاعرنا وعدم ثباته واعوجاج مسلكه، وبنوا عليها ما بنوا من اللوم والتقريع والتأنيب، حتى ليحسب المرء، وهو يقرأ ما كتبوه، ان إدغار أساء للانسانية كلها إساءةً لا تغتفر بما غرّر من نساء وجنى على قلوب!

على اننا نجد — ولنترك تعدّد العلاقات الغرامية عند اكثر الرجال المشاهير الذين نعرف أسرار حياتهم الشخصية — نشوء عدة علاقات، في قلبٍ واحد، ظاهرةً معتادةً مستقيمةً لا حرج عليها ولا شذوذ فيها. وانا إنما أعني فيما اقول تلك الاهواء الصادقة

المخلصة الا هذه العلاقات العرضية التي يبعثها طيش الشباب ونزوات الجسد !

إن حُلُمَ « الوفاء المطلق » اجملُ مـــا اخترع الانسان من احلام في حيز العواطف ، ولذا خلع عليه طيالسَ العظمة وأحاطه بهالة اسطورية من التمجيد ! بيد أن الواقع يفرِضُ علينا ، حين نقاضي الفردَ على حدة ، ان نعزله عن الاساطير ، وان نضرب صفحاً عن النظرات المثالية والاصطلاحات المصطنعة التي تُضلِّلُ القضاء وتسُدّ سبل العدل على احكامه .

وان تعدد العلاقات الغرامية بقلب واحد ، وتوازيها في الشدة والاضطرام ، وتساويها في الصدق والاخلاص ، لا يشكل « خيانة » الا في نظر المتعلق الذي يحسب نفسه مخدوعاً مغدوراً او مغروراً به . اما المذنب او « الغادر » فانه موقن في قرارة نفسه انه يستجيب في جميع مواقفه لعواطف تتساوى في تأثيرها عليه واقناعه باجابتها ، وقديماً قال « رونسار » الشاعر في قصيدة مشهورة .

لستُ عاشقاً لماري وحدها ،
فحب آنّا يُمسكني ايضاً .
وبينا تشدّني هذه اليها
تجذبني تلك بدورها .
هكذا كان « تيبول » قبلي
يحب نيميزيس وديليا معاً .

وعندما التقى ادغار إلميرا رويستر كان بُرعماً آخذاً في التفتح ، وذلك إما في الاسابيع الاخيرة من حياة مسز استانارد، وإما بعد إدخالها المصح العقلي .

وكانت ساره إلميرا رويستر في الخامسة عشرة من سنيها حين تعرفت الى ادغار ، وكانت تسكن بيتاً قريباً من بيت آلان . وكانا يجتمعان في تلك البساتين الخاصة بولاية فرجينيا وحدها ، الغنية بالاشجار الضخمة السامقة ، حيث لا تعرف الطبيعة حكمة ، ولا تتقيد بقاعدة او قانون ، فكل ما ينبت فيها يمتد ويتسع ويرتفع ... حيث تحتاج الاشجار الى فضاء ، والازهار الى شمس ، لتأخذ كلٌ منها مداها ... حيث ترى الارض ابداً رطبة ، وتراها ابداً حارّة ، فتعطي بسخاء ما بعده سخاء !

نستطيع الآن اذن ان نتمثل ذلك الشاب ادغار مورقاً مُزهراً غنيّاً بالمطامح والاحلام والآمال ، كجزء من هذه الطبيعة التي نبت منها وفيها ، فلا يصدّه شيء عن التطلع للحب ، للمجد ، للعظمة . ونستطيع ان نتمثل تلك الخَوْد الغضّة « إلميرا » بعينيها السوداوين الراكزتين القويتين القاسيتين ، وعقارب صدغيها حول وجه مديد متماسك طماح كما وصفها ادغار نفسه ، وعندئذ ندرك ، وراء هذه القسمات المشحونة بالحيوية الغامرة المتسلطنة ، انها عازمة على البقاء من بعده ، بل على البقاء ولو فَنِيَ كل حي ، ولا يردها عن هذا العزم رادّ في الارض او في السماء اذ تظهر عليها جميع إمارات المزاج الجبار العنيف الحافل بالغوامض والاسرار الذي سيكون من شأنه ان يصمد للحياة بجرأة فذة نادرة ، تلك الجرأة التي تنبع من السذاجة ، ولكنها سذاجة من نوع آخر ، لانها تنطوي على حسّ دقيق بالذات وقيمتها .

لم تكن إلميرا تنشد اكثر من ان يدللها ادغار ويفتتن بها ،

وان تفتتن هي به وتتناجى وإياه ، فقد كان غنيًا بكل ما يفتن النساء من فصاحة الى صباحة الى حماسة الى هذر كلامي دفّاق ، الى مقدرة خارقة على تحويل هذه الدنيا الى اسطورة او انشودة .

وهكذا ... سرى الوهم الى كل منهما أنه يحب الآخر . والحب كلمة كبيرة ، يكفي ان يتخيل المرء معناها ، كما يروقه ان يتخيل ، ليحسب نفسه محباً ، ويسبح في آفاق هذا الحسبان الباطل ، متحللاً بعد ذلك من كل همّ وقيد ، ناسجاً من أوهامه أردية النعيم والهناءة التي لا تلبث ان تنصل وتتهلهل لدى اول احتكاك بواقع الاشياء والحياة .

والواقع ان إليرا وإدغار كانا متوهمين ، فلا هي كانت تحبه ، ولا هو كان يحبها . بيد أنهما كانا يلعبان فيما بينهما هذه المسرحية بملء إرادتيهما وخالص رغبتيهما ، اذ اندمجا في هذه المؤامرة على نفسيهما دون ان يشعرا بما قد تجره من وبال على كل منهما ، او ان ينظرا الى عواقبها ، واخذا يصطنعان الآهات والذكريات والعواطف من غير اساس نفسي صحيح ، ولكنهما افادا من ذلك ان اختمرت في قلبيهما اوهام وآمال ، تبلورت فيما بعد عندما افترقا ...

اننا لنتحدث دائماً عن « الاخلاص في الحب » ونولي هذه الفكرة — وهي فلسفية محض — جل اهتمامنا ، كما لو كانت حقيقة واقعة لا مفر من اجابة متطلباتها . ولكن كذبة كهذه نودعها تلك الكمية الكبرى من الايمان تنتهي بنا ، في المستقبل ، الى قوة كافية ، حتى اذا انبعثت فينا كذبة اخرى ، جاءت اشد واقوى وابقى على الايام . ومن قال لك ان الحقيقة ،

حقيقتنا ، شيء غير هذه السلسلة المتصلة الدائمة من الاكاذيب التي نكذبها على انفسنا ؟

على انه مهما كان الامر ، فان ادغار عاش في نشوة روحية من حب إلميرا ، واطلع من ورائه على مشاهد غرامية في نفسه ونفسها ، ما كان ليطلع عليها لولا توهمه وتوهمها انه يحبها وانها تحبه ، اذ قضيا زمناً — وان قصر — من عمريهما ، يغنيان معاً ، وينفخان في الشبّابة ، ويرقصان لموسيقى خاصة ، ويتبادلان الآراء والاحاديث والنكت والمداعبات .

ذلك هو الجو الذي كانا يعيشان فيه ، وهو مما يبعث على الاطمئنان ويوحي بالسرور . وفي غمرة هـذه الطمأنينة ، قرر صاحبنا ان يتزوج من صاحبتـه كما فعل الآخرون قبله ، وكما سيفعلون من بعده ، دون ان يكلف نفسه عناء التفكير في عواقب هذا القرار .

كان ذلك في الوقت الذي سار به الى جامعة « شرلوتفيل » حيث يتابع دراسته العالية ، وكل ما في ذهنه ان مراسلة رائعة ستقوم بينهما ، يكتب فيها ما شاء له الخيال ان يكتب ، ويتحدث لحبيبته في رسائله ما طاب له الحديث ، ناوياً ان يقترن بها بعد عودته ، فلما ذهب سكتت إلميرا سكوت ابي الهول !..

وهنا بدأ — على مـا يقول الرواة — يحتسي الخمرة ، تلك الخمرة التي هدت قواه وافقدته كرامته وقضت على حيويته فيما بعد ، ولكن شيطانها كان في دمه ، يستخفي وراء حسه الموقود الملتهب ، ولم يكن ينتظر ليستعلن الا انبثاق الوعي ، فالآلام والهموم والمصائب التي تدفعه على الشرب سبقت وجود شخصه

على الارض ! ولكن ما الخبر ؟ لمَ سكتت إلميرا ؟

الخبر هو هـــذا ، هو ان السيد آلان نصح للسيد رويستر والد الميرا ان يحول بين ادغار وابنته ، فكان الحبيبان يكتبان الرسائل ، ولكن الرسائل تضل الطريق فلا تنتهي الى اهدافها مما حدا الآنسة إلميرا على الاعتقاد بان ادغار اهملها او نسيها او تعلق بغيرها ، وحدا ادغار على الاستغراق في الكآبة والهم ، فارتمى على الكأس يبثها لواعج صدره ، ويطلب عندها سلوان عذابه ، حتى فترت حماسته وخبا توقد حبه !

وما كان من السيد رويستر إلا ان استغلّ هـذا الجو من الفتور الذي عمل على خلقه ، ووفق الى ايجاده ، فزوج ابنتـــه إلميرا من السيد « شلتون » وهو من اثرياء ريتشموند ووجهائها !

مارى ديفيرو

قبل ان نتحدث عن غرام بّو الجديد، ينبغي لنا ان نتعرّف الى الظروف التي سبقته، والاحوال التي وُلدَ فيها، سيّما ونحن نجهل مراحلَ هذه العُلاقة وتطوراتها الحقيقية وما لابسها من حالاتٍ نفسية. وكل ما نعرف من شأنها هو ما نقلته لنا صاحبةُ العلاقةِ في مذكراتها عنها ... تصوّر كيف يكون حديث فتاة عن شخص تقول انه احبها، وحبهما لم يثمر غير القطيعة! أيكون خالياً من التخليط؟ أيخلص من كل شائبة؟ سنرى ...

كانت صلة إدغار بالسيد آلان تسير في منحدرٍ خطرٍ، ولم يكن ثمة من يتلافى انحدارها ويحول دون وقوعها في الهاوية، غير مسز آلان وشقيقتها، اذ كانتا تقفان اكثر الاحيان الى جانب ادغار وترفقان من حاشية التاجر المعتبر، وتحملانه على التسامح في معاملة هذا الشاب اليتيم اللطيم. وسنجد المرأة ... المرأة دائماً، هي التي تُقيلُ ادغار من عثراته، وما اكثر ما يعثر!

بيد ان التنافر بين ادغار وآلان لم يكن وليد اعراض طارئة، اي مما يطفو على سطح الحياة اليومية، وإنما هو في الواقع نتيجة احتكاك بين طبيعتين تختلفان في الجوهر، ولا

تتلاقيان عند نقطة من النقاط : ادغار كريم النفس ، سخي اليد ، يُقبل على التضحية في سبيل الآخرين ، ويبذل من نفسه ووقته وجهده من اجل راحتهم وسرورهم ، ويجد لذة غريبة في مؤانسة الادباء والشعراء والمفكرين ، والتعرّف الى البارزين من رجال المجتمع ونسائه ، بينما آلان مترفع متزمت ، يتحامى المجتمع وشخصياته ، ويجدُ من السخف والعبث ان ينفق المرء ماله في ولائم ودعوات ونزهات لا مغنم فيها ولا ربح وراءها .

تلك هي روح الخلاف بين آلان وربيبه ، فاذا اضفت الى ذلك ان ادغار لم يكن ابن آلان ، وان مثل هذا الخلاف الجوهري يؤدّي غالباً ، فيما لو نشب بين والد وولده ، الى هجر وقطيعة ، فكيف به وهو ناشب بين شخصين لا يجتمعان إلا في عطف امرأة وحنانها ، هي مسز آلان ؟

لقد وقف النّقاد كلهم ، او جُلهم ، ينعون على ادغار نكرانه الجميل ويرمونه بالشذوذ ، لانهم حسبوا ان آلان احسن صنعاً في احتمال ادغار طيلة هذه الاعوام . بيد انهم نظروا الى الاشكال التي كان خلافهما يأخذها ، ولم يفطنوا الى جوهره وروحه .

تأمل الآن تفاصيل الموقف : كان ادغار يعرف « إدوين كولبير » ، وإدوين هذا ابن آلان ، ولكنه غير شرعي ، فلم يكن يتورع عن تعيير آلان بابنه ، ولا عن تعيير الابن بوالده ، ويخلص من ذلك امام الجانبين الى النيل ممن آواه ورباه ، مما يثير حفيظة المربي على ربيبه ! وكان يعرف ايضاً ان آلان يخون زوجته مع جملة من النساء ، فلا يأتلي يشي بالزوج عند زوجه ويستغل غيرتها بصورة عفوية ، اذ لم يكن يقصد ان يجرحها بما ينقل اليها من

اخبار زوجها ، وإنما كان ، في صميم قلبه ، وفي طبيعة حسه ، حاقداً على آلان لما يأتي من فاحش الاعمال ، دون ادنى تفكير مرسوم بما قد يجره عليه هذا الامر من مغانم وارباح . بل لو كان يفكر في ربح ، لكان اجدى عليه ان يتملق آلان ، وان يساير ميوله وأهواءه ، وان يكتم ما يعرف من عيوبه وهناته .

وليس هذا كل شيء . هناك ما هو اشد من ذلك وأدهى . فقد توترت العلائق بين آلان وزوجه المريضة التي اصبحت تُحمّل زوجها تبعة مرضها ، وتعزو انهيار صحتها الى سلوكه معها ، وانقباضه عنها . والنساء يخلطن دائماً بين اشياء القلب او الروح وحاجات الجسد ، ولا يفهمن مطلقاً كيف ان رجلاً يحب امرأة ثم يُضاجع اخرى في وقت واحد !

وجاءت آلام مسز آلان وأوجاعها توسع شقة الخلاف بين ادغار وآلان . فقد تحزّب ادغار للزوجة وراح يدافع عن وجهة نظرها في كل ما يتعلق بامور هذه الاسرة الى ان تضعضع آلان واصبح كيله طافحاً فلا يطيق بعدُ همسة من ادغار ، ووقف ينتظر مبرراً لطرده والتخلص منه ومن مشاكله .

وجاءت الفرصة المناسبة دون تمهل ولا إبطاء في آذار من عام ١٨٢٦ اذ رفض جون آلان دفع القسط المستحق للجامعة ، فاضطر إدغار للوقوف عن الدراسة . وليت المشكلة تحل بترك الجامعة ، وتنتهي عند هذا الحد ، واذ ذاك يهون الخطب وتصغر المصيبة ! ولكن إدغار مَدينٌ لرفاقه بمبلغ يتجاوز الالفي دولار لا يعرف احدٌ لِمَ استدانها ولا كيف انفقها . واكبر الظن ان السكر والقمار استغرقا القسم الاكبر منها ، وذلك مما يشجع آلان على

التشبث بالموقف الذي وقفه ، ويجعل حجته مفحمة لا تقبل الرد ، كما يجعل إدغار في منتهى الوهن اذا جرّب الشكوى او اظهر التذمر .

في ١٨ آذار ، وقعت بينهما مشادة عنيفة خرج فيها الاثنان عن طور اللياقة ، وتبادلا قوارص الكلم ، وتراشقا بمختلف التهم والزرايات ، انصرف إدغار في ختامها من حضرة مربيه كاسف البال ، محنقاً ، مهاناً .

قد لا يجد المرء مجالاً لتبرئة إدغار ، ولا وسيلة لتبرير اخطائه سوى انه صغير السن ، قليل التجارب ، ولكن التبعة في خلاف ، اي خلاف يحدث بين يافع غرير وكهل ناضج ، تقع على الناضج ، لان النضج هو المسؤول عادة عن توتر الخلاف الذي يكون احدَ طرفيه ، ولأن النضج يفرض على صاحبه ان يتلافى تدهور الحوادث بما يدرك من عواقبها ويعرف من تقلباتها .

لقد كان باستطاعة آلان ان يوفي ديون إدغار ، ويصرفه الى مزاولة عمل من الاعمال . غير انه ، وقد خذله ذلك الخذلان المصعِق ، القى به في هوّة لا يعرف المسكين كيف يخرج منها !

بعد تلك المشادة هجر بتّو المنزل نهائياً ، والظاهر ان جون انذره ان لا يعود الى بيته اذ رأى ان مثل هذا الانذار كفيل بتشديد همة إدغار وانصرافه الاخير عنه .

هنا ، تُذكّرُ الاميرة ماري بونابرت بهجر ابيه لمنزله فيما مضى وتقارن بين الموقفين ، وتحكم المقارنة بين دافيد وولده إدغار : ذاك هرب ليصير ممثلاً ، وهذا ليصير كاتباً وشاعراً .

في ١٩ آذار عاد ادغار الى مناقشة آلان ، وعادت المشادة

بينهما الى عنفها السابق ، الى ان القى التاجر بربيبه خارج الباب وطرده تنفيذاً لانذاره . وذهب ادغار يركض الى اقرب خمارة حيث كتب لجون رسائل ما تزال محفوظة ، رسائل تقطر بالضراعة ، وتنضح بالاستعطاف ، ويغمرها جوّ من التأثر المؤلم والكآبة الخانقة . ويلوم فيها آلان لما كان من قسوته في ان غذّى طموحه حين ادخله الجامعة ، ثم قطع به الحبل في نصف البئر . بيد أنه لم يخلص بها من التخليط والاحاديث الصبيانية ، فذكر قضايا مضحكة سخيفة . وكلها ، بكل ما فيها ، تعبيرٌ عن غليانٍ مفجع يحزن كل من يقرؤها ، سيما اذا تصوّر هذا الولد التاعس الذي وقف على عتبة الوحدة مهجوراً منبوذاً يناشد جون آلان الرحمة ويطلب منه الكرم والمغفرة .

في صباح اليوم التالي انتظر الجواب ، ولكن ... على غير جدوى ! عاد يكتب ويكتب ، وهو لم يأكل بعد اذ لم يلق من يطعمه . ودار في الشوارع ودار دون ان يجد مأوى يؤويه . فطلب اخيراً صندوق ثيابه وكتبه واثني عشر دولاراً فقط ليسافر الى بوسطن .

عندئذ اتفقت مسز آلان مع اختها نانسي على ايصال مبلغ زهيد من المال اليه خفية ، وبعثتا اليه بصندوقه ومخطوطاته ، واوصتا به رئيس المرفأ كي لا يعتبره الموظفون مهرّباً ، فصعِدَ المركب على انه ذاهبٌ الى « نُرفوك » وهو في الحقيقة قاصدٌ بوسطن ...

لا يزال خيال إلميرا يراوده ، وفي نفسه من هواها وميضُ وحنين : حنين يحلّق به في اجواء صاحية نيّرة ينسى بها الهموم

المطبقة على اقطار حياته من جميع جهاتها ، ووميضٌ من الفكر المبدع يهزّه الى نظم الشعر وتأليف الكتب . فأصدر عام ١٨٢٧ ديوانه الاول تحت عنوان « تيمورلنك وقصائد اخرى » بتوقيع « بوسطني » نسبة الى مدينة بوسطن . وهو كتيّبٌ في اربعين صفحة تولى امره ناشر مبتدىء لم يبلغ العشرين من سنيه ، اظهر فيه ادغار اولى محاولاته الغنائية التي كان من شأنها تجديد الشعر واعطاؤه موسيقى طريفة وغوراً عميقاً . اما قصيدته « تيمورلنك » فقد صوّر فيها نفسه مستتراً باسم ذلك الفاتح الشهير ، اذ خُيّل اليه ، كما كان يخيل لمعاصريه من الشباب ، ان امتلاك ناصية البيان ظاهرة خارقة تنطوي على إعجاز يمكنه من حيازة الدنيا والسيطرة على العالم !

والواقع ان ادغار بو يعرض في قصيدته هذه الثمرة الوهمية لفتوحاته ، اعني لمطامحه التي لا تحد ، في فتاة اسمها « آدا » هي بطلة القصيدة ، حيث يؤكد ، فيما يؤكد ، انه سيقدّم لها عربون ولائه ووفائه امبراطورية حقيقية مترامية الاطراف . وليست آدا غير إلميرا رويستر التي عرفناها في الفصل السابق .

بيد ان الكآبة تطفو على كل بيت من هذه القصائد ، وتحيطها بهالة من الجدّ المر ! ولم يكن بو من اولئك الشعراء الذين ينصرف همهم الى سرد مآسيهم النفسية ، وتكرار هذا السرد في اشكال وقوالب متعددة ، واستغلال ما يجري لهم من حوادث القلب والروح لبث الشكوى وإقلاق راحة الناس بآهاتهم واحزانهم ، وإنما كان من طبيعته ان يخلق في شعره ذلك « المنظر الاخلاقي » الفاجع الذي يُشعرك بموكب الجنازة او بما يقاربه فيما

يثير ويوحي من اجواء وافكار واحاسيس . وإنك لواجدٌ في باكورة شعره تلك « غرام » ادغار كما كان وكما سيكون وكما خلد وشاع من بعده ، اي عاطفة حارة في اطهر قالب واصفى إشراق . فهي اثيرية لا تشوبها شائبة ، وهي التي لا ترقى الى كنهها جميع النساء ، ولا تستهوين قاطبة على السواء ، ولا يتذوقها منهن إلا صفوتهن اللواتي يدركن ما تحويه من سمو وطلاوة !

وكان ادغار ، يوم اصدر مجموعته هذه ، يعالج سكرات العذاب المرهق ، فهو طريد ، شريد ، وحيد على الارض ، مهجور من الناس وليس له من همّ غير تأمين القوت . وعبثاً حاول ان يرأب الصدع ، ويصلح ما فسد بينه وبين آلان . فلما اخفق في هذه الناحية وقنط ، لجأ الى الجيش ، وانخرط في الجندية يوم السادس والعشرين من نوار عام ١٨٢٧ باسم ادغار آ. بيري . فألحق بالفرقة الاولى للمدفعية ، وذهب يمارس التمرينات الاولى في حامية بوسطن . وهناك اظهر انه مثال الجندي المستقيم الذي يؤدي واجباته احسن التأدية ، وينفذ الاوامر بصدق وجلد وفهم ، ثم لا يسكر ولا يقامر ، ونفسه مليئة بالعزم على القيام بالدور الذي يوكل اليه حتى النهاية . غير انه ادرك باكراً ، على الرغم مما كان يجد في الشعر من تعزية وسلوى ، انه لم يخلق للحياة العسكرية ، فرغب الى رؤسائه ان يُطلقوا سراحه ، وعاد يكتب الى آلان يرجوه ان يرعاه من جديد ، وهذا سادرٌ غافل عنه لا يجيب على رسالة ، ولا يهتز لضراعة . والظاهر ان ذلك الخلاف الذي نشب بين آلان وربيبه لم يكن من النوع المألوف المعتاد ، فهو يأخذ جذوره من تلك الهوة الاساسية الواسعة ، المحفورة بالفطرة ، بين

رجل الشارع والعبقري المتفوّق .

لقد كان عذر آلان الاوحد ، في جميع مواقفه من ادغار ، انه لم يفهم العظمة الكامنة في ذلك الشاب الارعن ، ولا فكر فيما عسى ان تكون عواقب إهماله إياه حين اهمله ، كما انه لم يفكر في النتائج التي قد تسره فيما لو صفح عنه وغفر له زلاته . بيد ان ادغار وفّر عليه عناء التفكير في اكثر من رسالة ، وبسط له مطامحه وغرائب تطلعاته . فقد كتب اليه يقول : « يجب ان يكون هذا العالم لي مسرحاً . » وفي مقام آخر : « اريد ان اخلد اسمك ، وان اكون شرفاً له . » ولكن كان أسمع لو نادى حيّاً !

ذلك بان هذا الصراع بين ذينك الشخصين إنما هو في الحقيقة بين قوتين متعارضتين : المادية والروحية ، فكانا يتزاحمان في هذه الارض على مكان لا هو بالمادي الخالص ، ولا هو بالروحي الخالص .

وبينا هما في غمرة هذا الصراع ، علم ادغار ان السيدة آلان ، امه الثانية ، تحتضر على مقربة منه . فلما اذِن له ان يزورها ، نزولاً على رغبتها ، وصل الى البيت الذي آواه طفلاً ليشهد للمرة الثالثة فراش الموت ، اذ انطفأت السيدة آلان في ٢٢ شباط عام ١٨٢٩ . وكان وصوله متأخراً ، فلم يُتح له ان يستمتع بعطفها ولو لحظة واحدة . وعلى الرغم من وصيتها التي تطلب فيها ان تشاهده قبل موتها ، وان يرافق جثمانها الى مدفنه ، وان يوليه آلان الرعاية والحنان من بعدها ، فان شيئاً من ذلك لم يكن ...

مسكين ادغار ! ما كاد يبلغ العشرين من سنيه حتى فقد اعز

الوجوه على قلبه : من والدته ، الى جين استانارد، لى مسز آلان . هؤلاء النسوة الثلاث هن اللواتي جعلن منه كائناً مرهف الاحساس تجرحه النسمة العابرة ، وتؤذيه اللحظة العابسة . لقد خلقته الطبيعة للحب لا للعمل ، للاحلام لا لتصنيع الرغائب وتحقيق الآمال . ولكن جوّ النساء الحريريّ المبطّن بالشهوات الناعمة المستغرقَ في مجاهل اليأس الدائم ، مكنه من تلك المناعة الاخلاقية التي تحتمل الجراحات ، وتنتصر على الاحزان ...

وكان ان أرسِلَ ، في خدمته العسكرية ، الى قلعة « مولتري » في جزيرة سوليفان ، عند مدخل مرفأ تشارلستون ، حيث ألف قصته الشهيرة « الحنفساء الذهبية » ، ونظم قصيدة « الأعراف » التي اظهر فيها مدى ما يختزن من عبقرية ، وما يصح ان ينتظر منه .

وسرى الملل الى نفسه ، بعد مضي زمن قصير ، واصبح في حالة نفسية لا يطيق معها البقاء في حياة الجندية ، فطلب الى آمره المباشر اللفتنانت هووارد ان يعينه على الخلاص . ولما لم يكن هذا راغباً فيه ، فقد لبى طلبه ، ولكن آلان تدخل في القضية واصرّ على ابقائه في قلعة مولتري .

عند ذلك قرّ قرار إدغار على ان يجهد في مهنته الى ان يصبح ضابطاً ، وان يدخل المدرسة الحربية في وست – بوينت ، ولكن سلوكه تجاه آلان ، واحاديثه عنه ، ودسائسه النابية عليه جعلت رؤساءه ورفاقه يمقتونه ويسيئون اليه .

وهناك ما زاد الطين بلة ، وهو ان آلان اراد ان يتزوج بعد وفاة امرأته ، ولم يكن امامه غير « نانسي » شقيقة زوجته التي لم تبرح تعيش معه ، فوقف ادغار يعارض زواجهما ، وكانت معارضته

استجابة لنزعتين عمياوين : اولاهمـــا حقدٌ على آلان الذي نسي زوجته بهذه السرعة وراح يعتاض منها ، والثـانية إعزازٌ شديد للانسة نانسي خلق فيه الغيرة ، اذ يرى ان آلان لا يستحقها ، وهو لو عقِل وكان يعرف مصلحته ، لفضّل ان يقترن آلان بفتاة تحمل له في نفسها كل تقدير وتكريم ! ولكنه أطـــاع رعونته ، وأطاعته نانسي ، فرفضت يد آلان ! وما هي إلا ايام حتى اعلنت خطبة آلان للانسة لويزا غبرييلا باترسون من نيويورك ، مما سيقفل بيت آلان في وجه ادغـار الى الابد ! وكان ذلك قد تم كله في الوقت الذي قُبل به ادغار في الكلية العسكرية .

كانت هذه الكلية تضم نحواً من ثلاثين استاذاً ومئتين وخمسين طالباً ، مما يسّر لادغار سبيل الاحتكاك بالآخرين ، وعرّفه الى مختلف الاذواق والعقول والشخصيات ، فارتاح الى ما وجد من تنوع العشراء والأمن المادّي ، ولكن عشراءه كانوا يقامرون ويسكرون ، فانغمس معهم الى الآذان .

وحدث ان نظم قصيدة اسمها « إسرافيل » ونشرها ونالت اعجاب الاساتذة والرفاق ، فداخله الغرور ، ودخل في روعه ان يترك وست – بوينت ، لا لما أثار من مشاكل حول آلان فحسب ، بل لما أبدى من اهمال لواجباته العسكرية ، واستنكاف عن المثول في الاستعراضات ، وتلكؤ في أداء الخدمات المفروضة عليه .

في ٢٨ كانون الثاني عام ١٨٣١ طُرد من الكلية العسكرية وشرد في الحياة بلا مال ، بلا مأوى ، بلا نصير ، ولم ينل من حياة الجندية غير « معطف الضابط » الذي سيبقى رمز الاخفاق ،

والذي لم يفارقه قط . وفي شباط ركب البحر الى نيويورك .

عاش ادغار سنتين ، في نيويورك ، عيشة حقيرة بائسة ، فقد سكن مع اخيه هنري كوخاً ضيقاً يكاد لا يسعهما ، مما أفضى به الى داء الصدر ، ووقع مسلولاً بين عشية وضحاها ، اذ لم يكن يملك اسباب الوقاية ، ولا ملك بعد ان اعتل اسباب العلاج . وكان داء السل يومذاك معرة ونقصاً يجهد المصاب ان يخفيه عن أعين الناس ، ويجهد الاطباء في اخفائه تلبية لرغبات المرضى ، مما أدّى الى انتشاره وكثرت ضحاياه ، فكان الشبان والشابات يموتون افواجاً دون ان يعلم أحد سر تلك الوفيات .

وفي أول آب عام ١٨٣١ قضى هنري بو نحبه ، فاضطر إدغار ، وهو الشريد البائس بعد فقد اخيه ، الى التحرش من جديد بآلان ، والكتابة اليه ، وآلان كعادته سادر لا يجيب . ولو لم يقيض الله لادغار خالته « ماريا كليم » التي آوته مع من تؤوي لتبع أخاه دون ان يسمع به أحد . فان هذه المرأة الطاهرة الحنون اتصلت بآلان نفسه ، وأقنعته ان يمد يد المعونة لها ، لا لادغار ، كي تستطيع ان تنقذه من السجن الذي يهدده اذا لم يف ديون شقيقه المتوفى . ولم تكتف بذلك ، بل راحت تتسول ، وتخيط الثياب ، وتقتصد ، وتدبر من هنا وهناك لتؤمن الراحة لعائلتها التي زادت « فماً » يطلب الطعام بوجود إدغار .

وفي أوائل ١٨٣٢ اعلنت احدى الصحف أنها تقدم جائزة قدرها ١٠٠ دولار لمن يوافيها بأحسن قصة ، ففكر ادغار ، لاول مرة ، انه يستطيع ان يحصل قوته بمعاناة التأليف ،

ومراس النثر ، فانكب على العمل واخرج نحواً من خمس عشرة قصة ، كتبها في كوخ خالته الحقير ، ونشرها تدريجاً تحت عنوان « قصص فوليو كلوب ! » وهي ما تزال ، الى اليوم ، من أروع نتاج قصصي ان لم تكن أروعه .

في هذه الاثناء ، تعرّف ادغار الى الآنسة ماري ديفيرو واعتلقها .

كانت هذه الآنسة تسكن بيتاً في شارع « آميتي استريت » ، تطل شبابيكه على كوخ الخالة « ماريا » حيث يسكن ادغار . فكان اذا جلس الى طاولته ابصرها من الشباك وراح يبادلها النظرات والبسمات . وما هي إلا مرة او مرتان حتى انتقل الابتسام الى الكلام . وفي ذات يوم ، كانت ماري تمشي قرب كوخه ، واذا بادغار يقف امامها ، ويقطع عليها الطريق بقامته الممشوقة ثم يُحييها ، فترد عليه التحية . وهكذا بدأت العلاقة العاطفية بينهما .

هنا ، يجب ان نذكر الحقيقة ، والحقيقة هي ان المعلومات الصحيحة عن هذه العلاقة تنقصنا ، فنحن لا نعلم من امرها غير ما روته الآنسة ديفيرو في مذكرات لها كتبتها بعد اربعين عاماً من مرورها ، والحادثة جرت يوم كانت في السابعة عشرة من سنيها ، فلا يمكننا ان نطمئن الى صحة تأثراتها ، ولا الى إدراكها الوقائع ، لان سن الفتوة يُحوّر الاحداث ويُبدلها ويُقلبها وفق اهوائه واتجاهاته كما هو الشأن في سن النضج التي تنقلها مع التأويل والتحريف . وأنّى لنا ان نثق بقصة تكتبها امرأة في السابعة والخمسين من عمرها ، وهي تشهد مجد ادغار في كل الاندية ، وتسمع

اسمه على كل شفة ؟ ألا يحق لنا ان نشك فيما ترويه ، وهي لا ترويه إلا اعتزازاً بماضيها ، وتزلفاً للثناء الذي ينهال على صديقها القديم ؟

ان الواحد منا ليجد صعوبة قصوى في سرد حادث جرى له بعد مُضيّ اربعة اعوام او خمسة على وقوعه ، سيما اذا حاول اعطاء التفاصيل المضبوطة الدقيقة ، فكيف به اذا سرد قصة مضى عليها اربعون عاماً ؟

لا جرم اننا محقون فيما نذهب اليه من ارتياب بصحة الروايات التي ترويها الآنسة ماري ديفيرو عن حب ادغار لها على ذلك الشكل الذي عرضناه ! بيد أن هنالك بضعَ تفصيلات لا يرقى اليها الريب ، لانها تنسجم في جملتها مع ما نعرفه من طباع ادغار وشمائله . وهي التي تجعل لمذكرات ماري قيمتها ، وتحملنا على تدوين ما جاء فيها :

كان ادغار ، على الرغم من عاداته البوهيمية التي تلقّاها واعتادها في حياته اليومية ، ذا عُجْبٍ ظاهر ، وغرورٍ بيّن ولكن جذّاب ، جعلاه اسطورةً عند اهل بلتيمور . إلا انها اسطورة يتناقلونها في معرض السخر والتسلية : فقد كان يغازل « كايت بلاكلي » في الصباح ، ويذهب بعد الظهر في نزهة مع احدى قريباته الآنسة « إليزابت هيرنغ » ويداعبها ويشبب بها ويحدثها عن مشاريعه في المستقبل ، اي انه كان يحب ثلاث فتيات في آن واحد .

والثالثة هي « ماري ديفيرو » التي فتنها ادغار بنعومته وفصاحته ، فانساقت في تيّار غرامه . وكانت « فرجينيا كليم » —

وهي في العاشرة يومئذ – تنقل الرسائل بين الحبيبين . ففي المساء تقضي ماري ساعاتها في التغني والترنم بأناشيد الهوى ، وفي الصباح بكتابة الرسائل . وكان في نيتها ان تُخطب اليه وتتزوج منه، وقد قالت عنه ان حبه جامحٌ عنيف ، يوشك ان يكون عاصفاً جنونياً ، وفيه غيرةٌ محرقة . وهذا ما يتنافى كل التنافي مع احاديث الآخرين الذين قالوا عنه انه افلاطوني النزعة في غرامه . ورُوي عنها – اي ماري ديفيرو – انها اوشكت ان تسلمه نفسها . ونحن لا نريد ان نلوث ذكراها ، ولكن الواقع هو اننا لا نعلم بالضبط ما جرى بينهما ، لان ماري تحدثت في مذكراتها عما كانت تبغيه من صلتها به ، او على الاقل ، عما ظنت انه الحقيقة !

وقد تعرضت هذه الصلة بين ادغار بو وماري ديفيرو لمؤامرة خطيرة قضت عليها ، كما حدث لصلته باليرا رويستر عيناً وتماماً ، اذ يُقال ان آلان تدخّل ضد ربيبه في هذه العلاقة وعكر عليها المجرى ، وان شقيق ماري الاكبر صرح لشقيقته بلهجة تحمل روح الفروسية القديمة قائلاً : « احب لديّ ان اراكِ ميتةً يأكلك الدود ، من ان تكوني زوجة هذا الرجل الذي لا يستطيع شيئاً حتى تحصيل خبزه . » وكان من نتائج هذه المؤامرة ، التي ترامت اصداؤها الخافتة المشوّهة الى مسامع ادغار ، ان توقف عن كل نشاط شعري – اذا صح التعبير – وانهى حديث الشعر مع ماري ، فلم يعد يكلمها إلا عن شخصها وعن حبه لشخصها .

وروت ماري ان ادغار جاءها ذات يوم ، وطلب اليها ان ترافقه فوراً الى بيت القسيس لاجراء صيغة الزواج دونما تلكؤ

او تأخير ، ولكنها عارضت السرعة في تطبيق القرار ، ولم تعارض القرار نفسه ، وافترقا بين سخط ورضى !

في اليوم التالي حدث ما أدى الى القطيعة التامة بينهما. وهذا هو الحادث كما ترويه ماري :

« مكثتُ طيلة المساء في البيت انتظر إيدي (تصغير ادغار للتحبب) فلم يحضر . ودخلت علي والدتي حوالى الساعة العاشرة وقالت : لقد آن ان تنامي يا ماري .

« كانت الشبابيك مفتحة ، وكنت واقفة امام واحد منها واضعة رأسي على ذراعيّ المتكئتين على حافة الشباك . بكيتُ وبكيت وانا على تلك الحال . بعد قليل من الزمن وصل إيدي . كان ثملاً . هذي هي المرة الوحيدة التي يسكر بها طيلة ذلك العام (١٨٣٢). ومذ وجد الباب مغلقاً بالمفتاح تقدم من الشباك ، وفتح مصراعيه ، ثم رفع رأسي بيديه وقال انه لقي نفراً من رفاقه في الجامعة واكرهوه على تناول العشاء معهم ، وسقوه الشمبانيا ، وانه تفلت منهم باقصى ما امكنه من سرعة ، وجاء يخبرني واقعة الحال .

« لقد كانت كأس واحدة تسكره ، ولكنه شرب تلك الليلة اكثر من كأس ... وفتحتُ له الباب وجلسنا على الشرفة في ضوء القمر . وما هي ان استراح وأخذنا باطراف الحديث ، حتى تشاجرنا . واني لافضل ان اغفل سبب المشاجرة ... هربت منه بعيداً فتبعني . نزلت عن الشرفة ، ودخلت من الباب الخلفي الى الغرفة ، واذا بوالدتي تصرخ :

« — ماري ! ماري ! ماذا جرى لك يا ماري !

« وأجابها ادغار ، وهو ما زال في أثري : اريد ان اقول كلمة لابنتك . ها انا لاحق بها . لي الحق فيها .

« ومذ كانت والدتي ضخمة الهيكل ، فقد ساندت الباب ، باب الدرج بظهرها وقالت : لا . ليس لك فيها اي حق ... لن تدخل

« — نعم ! نعم ! حقي بها صريح ، فهي زوجتي كما يعلم الله .

« وهنا قالت له والدتي ان من الخير له ان يتركني ويذهب ، والا اصابه ما لا يرضيه .

« عندئذ تركنا وخرج ... »

وكان طبيعياً بعد هذا الحادث ان تنقطع الآنسة ديفيرو عن ادغار ، وان ترد اليه رسائله دون ان تفتحها . ولكن ، مع ذلك ، فان الآنسة تخبرنا في مذكراتها ان رسالة حملتها اليها فيرجينيا من عشيقها ، جاءت بعد القطيعة ، وسلمتها الى والدتها ، وهذه بدورها نقلتها الى خال البنت واسمه جاك . فكتب اليه جاك جواباً أهانه فيه وهدده ان عاد ثانية لمثل هذه « الجناية » . فما كان من ادغار الا ان ابتاع سوطاً . وذهب الى مخزن جاك حيث جلده به ، ولم ينقذه من بين يديه غير شرذمة من اولاد الشارع وجيرانه من اصحاب الحوانيت . وما ان انتهى من عملية الجلد هذه حتى رجع الى بيت الآنسة ديفيرو يواكبه الاولاد والزعران . فلما رأى الفتاة ألقى السوط تحت قدميها وقال لها : « خذي ! هذي هي هديتي اليك ! »

تلك قصة مؤسفة مضحكة في آن واحد ! ولكن طابع الخيال ، خيال الآنسة ماري ، واضح فيها لا يحتاج الى تدليل ، فموكب الزعران الذي تصفه لا يمر إلا في مخيلة شعبية ساذجة هي ابعد

ما تكون عن بو وطباعه وجملة تصرفاته . وتنهي فتاتنا قصتهـا بالنتيجة الممتعة التالية :

« إني لأحسب انه لم يكن متقيداً بمبدأ من مبادىء الدين . لقد كان ملحداً لا يقيم وزناً لشرائع الله ، ولا لشرائع الناس . فهو لم يذهب مرة الى الكنيسة ! وكان يسخر من الحرمات المقدسة . وقد فعلتُ حسناً ، بل هربت بنفسي وانقذتها ، حين لم اتزوج منه ... لانه كان ينقض كالصاعقة لدى ادنى حادث يسخطه ، ولم يكن له ادنى سلطان على عواطفه . وربما استطاع ان يعيش عيشة راضية مع امرأة دون ان يقترن بها ... الخلاصة انه لم يكن قط متزناً ... »

فاذا التفتنا الى عمق الحس الديني ، الى تلك الروحانية الغريبة ، الى ذلك التفكير الصوفي الرائع – التي تتجلى كلها في آثار بو وأشعاره – ادركنا قيمة هذا الكلام الذي تلقيه ماري ديفيرو على عواهنه ، وعلمنا انها تعني بالدين تلك الطقوس الخارجية التي يمارسهـا جَهلةُ المتزمتين ، وسُذّج الاتقياء الغافلين .

وهكذا انتهت علاقة ادغار بماري ديفيرو ، دون ان يجني منها غير المرارة ...

وتلك هي حاله مع إليزا رويستر التي نبذته – كما رأينـا – وأقدمت على الزواج من غيره دون ان تذكره .

ولكن ادغار ، رغم انه مُني بالخيبة تلو الخيبة في حب النساء ، ظلّ على ثقته الاولى بهن ، وعطفه عليهن ، وإعجابه بما يصدر عنهن في مواقف البناء الايجابي ، ولم يُلحظ عليه الغيظ ولا الحقد تجاههن ، ولا راح ينقمُ على حواء وبناتها كما يفعل المخفقون ، او ينتهي اليه الخاسرون من الرجال كلما خسروا معركة الحب ، او اخفقوا في

ميدانه .

وسنشهد ، فيما يلي من فصول ، مدى الوفاء الذي احتفظن بـه لذكراه ، والرعاية التي احطنَ بها اسمه ، والتضحيات التي اقدمن عليها من اجله ، يوم فهمنه وادركن حقيقة امره ، كما شهدنا ذلك في ما سبق من فصول .

فرجينيا كليم

هنـــاك جملة من النقاد والاطبـــاء يرون ان إدغار اولِعَ بـ « الافيون » بعد لمك الحيبة المريرة التي افضى به اليها غرامه الثاني، اي مع ماري ديفيرو . وسبيلهم الى هذا القول مـا وجدوه في آثار شاعرنا من خصب الخيال الغريب، الموغل في غرابته ، وطرافة الاحاسيس التي لم يسبق لاحد ان عبّر عنها او شعر بها على ذلك النحو العجيب ، ثم اكفهرار الاجواء النفسية والعاطفية في قصائده وقصصه ، مما لا يخطر ببال انسان عاديّ يجتاز ، في حياته اليومية ، حالات عادية .

رأوا ذلك ، وجهدوا في اثبات هذا الرأي ، وحدّدوا زمن وقوعه في هذه الفترة من حياة بّو ، اي بعد صلته بالآنسة ديفيرو ، ولم يكن لديهم اي مستند تاريخي ، ولا اية علامة مادية ثابتة تضع الظن موضع اليقين !

ها نحن نجتزىء بضع فقرات من تقرير « هرفي آلن » حول هذه النقطة ، نوضح بهـــا وجهة نظر الكثيرين ، وطرائق استدلالهم واستنباطهم : « ... كان للافيون في عينيه سحرٌ واغواء ، اذ كان ينتزعه من عالم الحقائق البغيض اليه ، ويجعله في سعة رائعة من خياله ، ويستفز ملكات الابداع في نفسه ، ويهدّىء ، الى ذلك ، اعصابه » ، ثم يمضي في تأكيد قوله هـذا : « والدليل الصارخ على

صحة ذلك ، ينهض في مؤلفاته التي كتبها يومئذ ، فمجموعته « قصص الفوليو كاوب » ملأى بالاحلام الافيونية . وان من يجهل تأثير الافيون يرتاب فيما نقول . اما العارفون الذين مارسوا ذلك المخدر ، فيكفيهم ان يقلّبوا صفحات تلك القصص ليقتنعوا بما نورد اقتناعاً لا يُدحض ! »

الواقع ان الذين أولعوا بالافيون وخبروا آثاره وتأثيراته ينكرون ان يكون له اي اثر ، ولو ضئيل ، في انشاء الاحلام العجيبة ، او بناء الصور الغريبة ، او تلوين تداعي الافكار ، وتحوير مجاريها . فليس في كلام هرفي آلن غير « افتراء وتضليل وكذب » لا نعرف اسبابها ، ولا ندرك مراميها .

كل ما في الامر ان ادغار كان شاعراً غني الفكر ، طليق الخيال ، ذا تصاوير مترفة ، وكلمات خاصة ، فكان يكتب قصصه كما لو ينظم قصيدة ، اي بتأثير قريحة شعريه فياضة ، وإلهام عجيب ، فاذا أضفْت الى شاعريته طبيعته « الحُلُمية » التي تنزع من تلقاء ذاتها الى تركيب الاحلام ، أدركت ان القضية لا تعدو التلفيق والارجاف .

وقد تناول هذا الموضوع الدكتور « لويس ليون » ، وهو استاذ في جامعة برلين ، بجدّ وتعقل علمي رصين ، في كتاب من اقيَم الكتب واندرها ، واخبرنا فيه ان مدخّن الافيون ينتهي ، بعد ان يُدمن ، الى حياةٍ من الركود الفكري المطلق ، اي ان انقطاع مدمن الافيون عن الوجود — وهو الذي يعيش في حلم دائم — يؤول به حتماً الى جمود القوى العاقلة ، وسكون الجهاز العصبي ، لا الى تهيّج دماغي ، ولا الى تعدد او تشابك في

التصورات ...

على ان بودلير ، وهو الذي دخن الحشيشة وخبرَ اسرارها لا يشك ان ادغار كان مدمن افيون ، ولكن شهادته هذه مجروحة لانه لم يَذُقِ الافيون ، ولا بنى اعتقاده على واقعة او حقيقة ، وانما هو يتخرّص كما تخرّص الآخرون .

اذا كان لا بد من مادة تكون « اداة إدمان » ينسى بها ادغار نفسه ، فالمرأة ، او ... لا ، حب المرأة ، لا الخمرة ولا الافيون ، هو الشيء الذي ادمن عليه بو ، ولم يستطع ان يعيش بدونه لحظة واحدة من لحظات حياته ، فانه ما كاد يقنطُ من ماري ديفيرو ، حتى اعتلق هوى جديداً ، هي قريبته الصغيرة فيرجينيا كليم .

نحن نعلم مما مررنا به ان ادغار التجأ ، بعد ان صفرت يداه من حماية آلان ، الى منزل خالته مسز كليم ، وأقام في رعايتها رغم الصعوبة التي كانت تلاقيها في تحصيل القوت لاهلها واولادها . ورأينا كذلك ان ادغار لم يتورّع ، في تيهه الغرامي ، عن ان يستخدم ابنة خالته فرجينيا لنقل رسائله الغرامية .

وُلدت فرجينيا كليم في ١٥ آب عام ١٨٢٢ ، اي انها كانت في التاسعة من سنيها يوم سكن قريبها عند والدتها . ورأينا ايضاً ان حياة بّو في هذه الفترة كانت بمنتهى التعاسة والاضطراب . بيد أنه ما عتم حتى هدأ ، ووقع في حب فرجينيا ، وقرّ به الرأي على الزواج منها ، واتخاذها شريكة حياته .

بدأ حبه الجديد عام ١٨٣٥ ، ولم تكن فرجينيا « طفلة » بعد فحسب ، وانما كانت ، الى ذلك ، هزيلة ، ضامرة ، قصيرة القامة ،

ذات وجه طفوليّ مستدير ، وذكاء يتدنى بمستواه عن عمرها . فلما نقلت مسز كليم نبأ المشروع ، مشروع زواج ابنتها من ادغار ، الى اقاربها ، وقف احد انسباء الشاعر واسمه « نلسون بو » الى جانب المعارضة ، وصرح انه سيحول دون هذا القران الارعن بكل ما لديه من قوة ، وطلب الى مسز كليم ان تبتعد بابنتها عن ادغار ، وعرض عليها ان يدخلها « بنسيوناً » خاصاً وينفق عليها من جيبه ، ريثما تصبح في سن تمكنها من تحمل تبعات اعمالها .

تلك ملاحظة قيمة لا يعوزها بعدُ النظر ولا تنقصها الحكمة ، ولكن التجربة اثبتت خطأ السيد نلسون ، لان فرجينيا كانت سعيدة حين عرض عليها المشروع ، وأظهرت كل رغبة فيه وارتياح لتحقيقه .

اما ادغار فقد اغتاظ لهذه المعارضة ، وراح يعمل بحماسة ولجاج على إكمال ما بدأ به تلافياً للعواقب في جانب ، وحباً بدحر العقبات التي اخذت تعرقل طريقه في الجانب الآخر . وكان ان وُفّق الى مرامه ، اذ حصل على اذن من كاتب المحكمة باجراء العقد واقترن سراً بابنة خالته في ٢٢ ايلول عام ١٨٣٥ ، في كنيسة بلتيمور ، حتى اذا هدأت العاصفة اقام حفلة إكليل عامة في ١٦ ايار ١٨٣٦ في كنيسة ريتشموند .

لا جَرَمَ ان هذا الزواج مدعاة للدهشة والاستغراب حتى ليحارُ المرء في تأويله على وجه من الوجوه ، اذ كلما قلّب فيه الرأي ، وجده مثار تساؤلات ، وبؤرة افتراضات لا يصل الى آخرها حتى يعود اولها . وهذا ما جعل اخصام ادغار وشانئيه في سعةٍ من ثلبه والزراية به ، بل كان ذلك الزواج سلاحاً ماضياً

في ايديهم يهاجمون به انصاره ومريديه ، وبه ينقون حملات من يرتاب في إخلاصهم ويجحد افكارهم ، ويتنكر لآرائهم [١].

والواقع ان زواج ادغار لم يثر في حينه – اذا استثنينا موقف نلسون بو – العاصفة التي اثارها من بعد . فقد احتفل بقرانه ، وحضر الاحتفال جمهرة لا بأس بعددها من اصدقائه وصديقاته ، وذوي القربى من اهله واهل عروسه . ويبدو ان زواج القاصرات كان شيئاً متعارفاً في تلك البيئة وذلك العهد .

اما هو ، فقد همس في آذان الذين لاموه ، او آذان الذين نقلوا اليه ملامَ الآخرين ، انه اقترن بفرجينيا لانها احبته وتهالكت على هواه . وصرح في مقام آخر انه كان يشعر بحاجة ماسة الى ملاك ينقذه من انغماسه في حمأة السكر التي قاربت ان تكون ضرباً من الزيغان النفسي في حياته !

فاذا جئنا ندرس القضية من زاوية سيكولوجية بحتة ، وجدنا ان للغرام اشكالاً او قوالب متعددة ، تختلف باختلاف العصور والبيئات والاشخاص ، فليس ثمة من قاعدة ثابتة يستند اليها الباحث ، ولا من قياس شامل نقيس عليه الحالات والاعراض والاوصاف .

لقد كان الحب في العصور الاولى « عاطفة » خالصة ، ثم تحوّل في الاعصر المتأخرة الى « لذة » . وكان يدور على هذين

١ تدور المشكلة كلها حول اقدام الشاعر على الاقتران من صبية صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من سنها ، ثم على شدة قرابتها له ، فهي ابنة خالته . والشرقيون لا يمرون بمشكلة كهذه ، ان في وجهها الاول ، او في وجهها الثاني ، فلا يستغربن القارىء ان يطول فيها الاخذ والرد ، عند الغربيين !

القطبين وما بينهما طيلة الاحقاب الغابرة ، في كل البقاع ، فتارة يكون عاطفياً – لَذّياً ، وطوراً لَذّياً – عاطفياً ، وآناً لذة بلا عاطفة ، وآناً عاطفة بلا لذة ، وهكذا دواليك ... وكان قالب الحب في النصف الاول من القرن التاسع عشر عاطفياً اكثر منه لَذّياً، بينا عاد في النصف الثاني معكوساً اي لذّياً اكثر منه عاطفياً .

ولم يكن غرام بّو بفرجينيا ليشذّ عن الجوّ العام في عصره ، فهو اذا كان قد اولع بقريبته ، واقترن بها ، فلأنه استجاب لموقف عاطفيّ صرف اوقفته اياه صلته او احتكاكه القريب بتلك الصبية الصغيرة .

ثم هناك شيء آخر غير الجو الاجتماعي ، هو رغبة ادغار في تنشئة فرجينيا ، وقد مال اليها ، وفق ذوقه وميله وهواه . واذا علمنا انه لم يكن ليجد ادنى متعة بالحياة إلا اذا كانت لديه امرأة يحبها ، ادركنا سر هذه الخطوة التي خطاها بعد ان يئس من ماري ديفيرو .

بيد أن اللحاظ الاكبر الذي اغفله مترجمو ادغار ونقاده ، او غفلوا عنه على الاصح ، هو ان الحب عند ذوي الطبائع الشعرية لا يتمثل كما يتمثل عند غيرهم من عامة الناس ، اي استجابة للغريزة الجنسية ، وسيراً مع اختلاجات الجسد ، وانما هو لديهم ، وفي إطار كيانهم ، تحقيق محسوس لجملة من المطامح الروحية ، والتطلعات الفكرية التي يقضون ايامهم في تزويقها وتلوينها وتصورها ، وهم بعد صغارٌ يحلمون اكثر مما يفكرون ، ويتخيلون اكثر مما يعملون ...

واذا انت تدبّرت هاتيك الجملة التي كان شباب الجيل السابق وشاباته يستعملونها كثيراً في احاديثهم وهي « وجدَ مَثَله الاعلى » تعبيراً عن رجل وقع في حب فتاة ، ادركت الصيغة الحقيقية التي تُفسّر بها اهواء بعض الشعراء . وذلك هو التفسير الصحيح لزواج ادغار من ابنة خالته فرجينيا .

نحن نعلم ان ادغار كان يميل، اكثر ما يميل، الى نساء يكبرنه في السن . ولنا في اهوائه السابقة وعلاقاته اللاحقة — التي سندرسها بعد — امثلة ناصعة على صدق ذلك الميل وصحته . وآية هذا الميل انه كان ينشد في المرأة التي يهواها أماً ، اكثر مما ينشد فيها زوجاً . غير ان تعلقه بفرجينيا — وعمرها نصف عمره — كان استرسالاً مع فكرة نزلت من حسه وكيانه منزلة العاطفة ، وهي انه يبغي الزواج من « ملاكٍ » يكون له من التأثير عليه والنفوذ في مناطق روحه ، ما لا قبل له بردع اوامره ، والتخلف عن نواهيه ، حتى لو رغب اليه ان يترك الخمرة مثلاً لانصاع الى رغبته وتركها ، واجداً في انصياعه هذا لذة تفوق لذة السكر ، اي انه اراد ، بتعبير آخر ، ان يتزوج من فتاة تؤدبه ، وليس لها من وسيلة الى تأديبه غير حبه لها وحبها له . وكان ان وجد هذه « المؤدبة المُثلى » في فرجينيا فاقترن بها . تلك هي رواية زواجه الخفية !

وليس هذا كل شيء ، فالموضوع ، موضوع زواج ادغار ، يحتمل بعد كثيراً من التعليل والتأويل . واذا كنا نلحّ هنا في تفسيره ، فلأن اكثر المعلّقين الادبيين والباحثين النفسيين اهملوا ما كان يجري في نفس ادغار وما كان يضطرب حوله من عادات

وآراء وتقاليد ، وانساقوا في ابحاثهم وتعليقاتهم إما مع نزعات شخصية وإما مع مصادفات عابثة رعناء ، وراحوا يؤكدون ما ليس اكيداً ، ويثبتون ما لم يكن ثابتاً .

الأكيد المحقق ان فرجينيا كانت توحي لمن يراها — وهي الناحلة الناعمة — بانواع من الاحاسيس المرقّقة التي تجعل الانسان يحدب عليها ، ويبذل من ذات نفسه لوقايتها ، وكأنّ ادغار شعر ، بل هذا هو الواقع ، انه امام كائن قريب من الموت ، امام وجه يشبه وجه امه ، وجه مدام آلان ، وجه مدام ستانارد . وكأنه خرق حجب الغيب بما أوتي من رهافة الحس ، وأطلّ منها على المصير الذي ينتظر هذا الملاك ، فلم يتماسك حيال موحياتـــه ، وانجذب الى فرجينيا بجواذب هو يعرفها ، ولا يعرفها غيره ، فكان ان قرن مصيرها بمصيره عطفاً واشفاقاً ، وحباً وايماناً ، في آن واحد .

تلك اشياء يمكننا نحن ان ندركها ، ولم يكن في امكان مواطنيه ولا معاصريه ان يحسبوا لها حساباً ، لان جلّهم ، ان لم يكونوا كلهم ، من طبقة واحـــدة ، ذات تربيـة واحـدة ، واستعداد واحد ، اي طبقة الاغنيـــاء المحافظين الذين كانوا اذا عبروا بشخص فقير او بوهيمي انهالوا عليه بالشتيمة والازراء ، واهملوا ما قد يصدر عنه ، لاعتقادهم سلفاً انه لا يصدر عنه ما يستحق العناية . ولذا تجد اكثر الشهود ضده ، في جميع القضايا التي عرضت له ، والشؤون التي تعرّض لها ، فبعضهم يقول ان ادغار لم يبلغ من التعاسة الحالة التي يصفونها ، وبعضهم يستنزل عليه اللعنات ويرجمه بالظنون والشبهات ، فلا يجوز لنا ان نصغي

لامثال هذه الاراجيف ، حتى ولا يمكننا ان نطمئن لاحد منهم ، اللهم إلا بعض نساء عرفنه ، وقدرنه حق قدره .

والى جانب هذه المشادّة التي نشأت حول زواج ادغار من فرجينيا قامت مشادة ثانية اشد من تلك واعنف حول « وقوع » الزواج ، وعدم وقوعه ، فهناك من يقول ان بّو لم يواصل عروسه ، وانها ظلت عذراء طيلة حياتها معه ... وذهب رهط من النقاد ، ولا سيما بعد « فرويد » ونظرياته ، الى القول باشياء وآراء ما انزل بها الواقع من سلطان ، كقولهم ان ادغار كان عِنّيناً ، الى انه تزوج من صبية صغيرة ستراً لعجزه ، الى ان « التسامي » هو الذي جعل منه شاعراً ، الى ما اشبه ...

والجدال في هذه « المسألة » عقيم ، لانه لا ينتهي ، مهما دار وتشعب ، وكيف خضنا فيه وخرجنا منه ، الى نتيجة حقيقية حاسمة .

تحدثنا الأميرة ماري بونابرت في كتابها النفيس عن ادغار بو ، — وهي التي كتبته تأييداً لنظريات فرويد — ان زواج ادغار ظلّ ابيض ، وان عدة مؤرخين اميركيين يؤكدون ذلك ، ومن بين هؤلاء « وودبيري » احد مترجمي حياته . واذا راح مؤرخ يؤكد شيئاً وهو يجهله كل الجهل ، فهذا لا يغير الواقع ، ولا يحلّ المشكلة في صميمها ، بل لو راح ألف ناقد اميركي ومن ورائهم الف شاهد يؤيدون « وودبيري » فيما يذهب اليه ، لما سجلنا خطوة واحدة من التقدم نحو الحل المنشود . إنما يحل قضية كهذه « اعتراف » الزوجين معاً ، ولا يحلها نهائياً اعتراف

واحدٍ منهما فقط ، وان ألقى ضوءاً عليهما . ثم لا أدري كيف يعيش رجلٌ مع امرأة هي زوجه الشرعية ، طوال اثني عشر عاماً ، وهما على تفاهم تام ، وحبٍّ دائم ، دون ان يقربها بما يقرب الذكرُ الانثى ! أفي الامكان ذلك ؟ واي عقل سليم يستسيغ ان يتصور مثل هذا التصور ؟

لقد كان في مستطاعنا ان نولي المرجفين بعض الحق فيما أرجفوا به لو ان ادغار اختلف يوماً من الايام مع زوجه، وكان بمستطاعنا ان نحدس شيئاً من هذا الحدس لو ان امرأته هجرته او سخطت عليه ، ولكننا إزاء موقفٍ لا سبيل فيه الا الى التخرّص والافتئات .

الراهن المعروف لدينا أن ادغار ظل يعامل زوجه ، ويتحدث عنها فيما يكتب وينظم ، كما لو كان يعامل فتاةً غريبة يحبها ، اي باسلوب من الاعظام والاحترام ، وطريقة من الوَله والتدله والشوق ، كأنما هي بعيدة عنه ، ولا يُتاح له ن ينالها !

وينضاف الى هذه الظاهرة العجيبة ان فرجينيا لم تحبل ، وبالتالي لم تُعرّف ادغار الى الابوة ، ولا هي عرفت الامومة .

لقد خاضت الاميرة ماري بونابرت هذا الحديث باسهاب ودقة ، وأمعنت فيه درساً وتنقيباً . بيد انها جعلت الاساس فيه « عجز » ادغار عن وصال زوجته . وانتهت الى هذه النتيجة الهامّة — كما ذكرنا آنفاً — استناداً الى آراء فرويد ، وتقريراً لصوابها ، وهي ان تعلق بو بزوجه ذلك التعلق الشديد إنما كان في الواقع تعلقاً بصورة امه التي ما انفكّ يتتبعها وينشدها ويبحث في وجوه الدنيا ... عنها .

والواقع اننا نجد عند النساء اللاتي أحبهن إدغار شَبَهاً كبيراً بين صورتهن وصورة امه اليزابيت . ويبلغ هذا التشابه درجته القصوى عند « فرانسز أزغود » وتليهـــا في ذلك فرجينيا . فنحن من فرجينيا امام ضخامة في الجمجمة ، وسعة في العينين ، وطول في الاهداب ، ونعومة في الاجفان ، وثبات عجيب في النظرات ، كأننا امام والدته اليزابيت عيناً وتماماً . ولكن التشابه بين زوجة رجل وامه لا يعني حتماً انه عنين ، ولا يُفضي بنـــا الى شيء من الاستنباط السخيف الاعوج الذي استنبطته الاميرة ماري بونابرت !

واذا انت جربت مرةً ان تتأمل صوَر العرسان عند مصوري حي او قرية ، فستقع على ظاهرة غريبة ، هي ان في عشر صور مثلاً ، تجد سبعاً منها او ثماني ، يشبه فيها العريس عروسه ، حتى لكأنها شقيقته . وليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب الشديد ، اذا رجعت تفكر ان اهالي القرية الواحدة او الحي الواحد ، الذين يخضعون عادة لجوٍ واحـــد ، ويتغذون من تربة واحدة ، ويتزوجون على مدى العصور من بيئة واحدة ، ينتهون الى تشابه شبه كامل في الملامح والقسمات ، فكيف يكون الامر بين ولد ووالدته ؟ لا بد وان يظهر التشابه أعمق واوضح !

ثم ... اذا كان ادغار يعامل زوجه برفق ، ويتكلم عنها ، حين يتكلم ، باحترام ، فليس في مضمون تلك المعاملة ما يشير ، بشكل من الاشكال ، الى عجز جنسي او تقصير في واجب الزوجيـة ، وإنما هي طبيعة الشاعر التي تحمله دوماً على الاخذ بيد الضعاف ، وتصرّفه تصريف الوامق المدله لدى ادنى شعور منه بحاجة الغير

الى عطفه ومواساته ، وقد كانت فرجينيا مثال الوداعة والرقة ، بالاضافة الى اضطراب صحتها وضعف مقاومتها لما يغزوها من أمراض ، فكيف يريدون ان يعاملها ادغار — وهو الشاعر — كي لا يكون عنيناً ؟ أتكون الخشونة والغلظة والفظاظة شروطاً اساسية في صلة الرجل بالمرأة ، كي يكون الرجل مالكاً لأسباب الرجولة كلها ؟ ما اظن ان ذلك مما يقول به العقلاء !

واذا نحن رجعنا الى الطب ، لنخلص من هذه المسألة المزعجة التي تترّس بها اكثر علماء النفس ، وركبها الباحثون جواداً ، الى تركيز آرائهم ودعمها — نجد ان العِنّة المطلقة لا تكون إلا في حالة او حالتين : اولاهما ، الخَلقُ المشوّه في التركيب الاساسي لأعضاء التناسل ، وثانيتهما ، إصابة الرجل بمرض عارض من شأنه ان يشلّ فاعليته التناسلية كالسكري ونحوه ... ولما لم يكن ادغار مشوّه الخلقة ، وكان على أتم ما تكون العافية ، فليس من سبيل الى إثبات عنّته إلا في مواقف عصبية خاصة . ولكن هذه المواقف العصبية ، التي يمتنع بها المرء عن الحب ، ابعد الحالات عن الاستمرار ، واقرب ما تكون الى « الموقت » في تيار الحياة النفسية . وإنه لمن المستحيل ان نورد ملاحظات ذات بال حول حياة الرجل الجنسية ، ونحن لا نعرف عنها غير تفاصيل نادرة لا يمكن الاطمئنانُ الى صحتها .

بيد أن المشكلة التي اثارها بودلير تستحق الاهتمام ، اذ رجع الى نصوص كتبها بّو ، يُشم منها رائحة الضعف الجنسي . ولخّص كلامه عنه دون ان يشير الى شيء من ذلك ! وهذا ما كتبه بودلير :

« ليس في قصص ادغار بّو ذكر للحب ابداً ، اللهم إلا في « ليجيا » و « ايلينورا » ، وهما لا تعتبران حكايتي حب بحال من الاحوال .

« ربما كان يعتقد ان النثر لا يرقى الى سماء هذه العاطفة الغريبة التي لا يتاح الافصاح عنها ، لان اشعاره ، على عكس قصصه ، مشبعة بها اشباعاً قوياً ، ففيها نجد العشق سماء رائعة ، مرصعة بالنجوم ، محجبة ابداً بغيوم من الكآبة العُضال .

« ونجده في مقالاته يتحدث عن الحب احياناً ، ولكن بتهالك ورقة كما لو كان مجرد اسمه يبعث الرعشة في قلمه . فهو يؤكد في مقالته « مملكة أرنهايم » ان الشروط الاولية للسعادة اربعة ، وهي : الحياة في الهواء الطلق ، حب امرأة ، الانعتاق من كل طموح او طمع ، وانشاء جمالٍ جديد !

« ومما يؤيد نظرة السيدة فرانسز أزغود اليه التي قالت : ان احترامه للمرأة يمت بنسب واضح الى الفروسية ، انه لم يتعرض قط للدعارة او للملذات الجنسية ، ولا اشار اليها ولو في فقرة واحدة من كل ما كتب ، على كثرة ما كتب . »

على اننا لا نستطيع ان نجزم ، حيال هذه الظاهرة التي اكتشفها بودلير ، بشيء مما يعنينا في الجانب الجنسي من غرام ادغار ، فمجال التأويل هنا اوسع واوضح . ما يدرينا ان يكون شاعرنا يلتزم جانب العفة في آثاره الادبية فلا تظهر عليه ، من خلالها ، حقيقته العميقة ؟ وما يُدرينا انه انفَ ان يخوض حديثاً يعتبره تافهاً ، وهو الذي قضى حياته اليومية في التأمل الرفيع ، والتحليق في اجواء الروح السامية ؟

كل ما يمكننا ان نجزم به هو هذا : ان ادغار كان ذا اسلوب خاص في الحب وفكرة خاصة عن الحب ، وكان يعتبر المرأة « وسيطاً » بين عالمين : عالم الافكار والاحلام ، وعالم الناس ، وكانت غرامياته ألواناً من ظمأ لا يرتوي ، وتتبعات متلاحقة لسعادة روحية اكثر منها شهوانية . وذلك مما لا سبيل الى نكرانه ، فان مؤلفاته ، نثرية كانت ام شعرية ، تشهد بصحته وتضعه موضع اليقين .

نحن نعلم ان ادغار كان الزوج الامثل في حياته مع فرجينيا ، اذ عاش ايامه بجانبها وهو يغدق عليها من الرعاية والعطف ما لا نعرف له مثيلاً في حياة المتزوجين ، وكان يضحي في سبيل راحتها وطمأنينة بالها بغاية ما يستطيع . وقد كثرت الشهادات حول هذه الناحية من أخلاقه ، لدرجة ان القريب والبعيد لحظها فيه . وقد تكون اصدق الشهادات تلك القصة التي روتها امرأة شابة ، كانت اسرة بو استأجرت عند امها بضع غرف للسكنى في مزرعة تقع فوق رابية ، تشرف على وادي نهر « الهدسن » . وكان بالقرب منها بستان يرتاده ادغار ، ويجلس فيه على مقعد يفكر ، ويستغرق في التفكير .

قصت تلك المرأة ان بو اظهر طوال ايامه هناك عطفاً شديداً على فرجينيا وبذل ما في وسعه لاسعادها ، وانها لم تشاهده قط غاضباً ولا ثملاً ، وانها كانت ترى فيه رجلاً كاملاً ، عذب المعشر ، رقيق الحاشية ، في كل حركاته وسكناته .

هذه شهادة قيّمة تتنافى مع اكثر الشهادات التي سمعناها عنه ،

وقيمتها ليست في انها تبرىء ادغار من الشبهات والمثالب التي حامت حول سلوكه ، وانما لانها صادرة عن السيدة « مرتا برانان » اي عن امرأة لا دخل لها في حياة ادغار ، ولا علاقة لها بمشاكله العائلية والاجتماعية والغرامية ، كما انها بعيدة كل البعد عن اوساط الصحافيين والمتأدبين والشعراء الذين حمّلوا سيرة زميلهم من الاكاذيب والاشاعات والدسائس والتلفيقات ما حجب الحقيقة عن العيون ، وبلبل الاذهان في كشفها وتقريرها .

ثم ان لدينا رسالة – وهي الوحيدة التي احتفظ التاريخ بها – كتبها ادغار لاحد اصدقائه ، وهي تنبيء عن تعلقه الغريب بزوجته ، وتدل على وله يبلغ حد التفاني ، وتصوّر موقفه النفسي يوم شعِرَ بمرضها ، واطلع على الخطر الذي يهدد حياتها .

بيد أن غرابة ادغار الاصيلة تطالعنا في اغلب اطواره ، وتنكشف اوضح فأوضح كلما تغلغلنا في اعماق سريرته ، وولجنا خفايا طباعه ، اذ يظهر ان علائقه بزوجته – وهنا الغرابة – لا تتسم بطابع الزوجية بما هو مشهودٌ او متعارفٌ بين الناس ، اي ان اتصاله بها وقربه منها وتماس حياته بحياتها ذلك التماس القوي ، لم تخفف كلها مجتمعة من حدّة عاطفته ، ولا غيّرت من تدلّهه بها وحماسته في ارضائها ، ولا بدّلت من معاملته اياها إن في الاعجاب والاحترام ، وإن في الاخذ والعطاء ! لقد ظل معها كما لو كان لا تجمعه بها اية صلة من حق او واجب ، ظل مُحبّاً اميناً على الوفاء والاخلاص ، فلم تفقد النظرة في نفسه قيمتها ، والبسمة لم تشُهْ طلاوتها ، والكلمة لم تخسر سحرها ، فهو في كل آن ، بل كل لحظة ، عاشقٌ جديد لمخلوقٍ واحد لا يتجدد ، وليست

امرأته في نظره غير ملاك عليه ان يحرسه ، او اخت قاصرة عليه ان يصونها ويدلّلها ويحيطها بانواع الانس والسرور . وان المرء ليعجب فلا ينتهي تعجبه حين يشعر ان غرام بنّو واحد احد ، لا يختلف ولا يتعدّد . فموقفه من فرجينيا – وهي زوجه – كموقفه من هيلين استانارد ، من آنّى ريتشموند ، من مدام آلان ... فهو لم يكن يسمح لغرامه ان ينزلق في وجهة هابطة مرة من المرات ، بل كان يسير به صُعُداً ، ويحلّق به نحو العلاء ... نحو العلاء ابداً ودائماً . وما كان هو نفسه ليتغير او يتبدل مهما يطرأ عليه ، ومهما يعرض له .

واذا كانت احداث الحياة وصروف القدر تكرهه بعض الاحيان على النقمة والتمرّد ، وتوغر صدره ، في لحظات ، على الدهر وابنائه ، وتقسره اقتساراً على الظهور بمظهر الثائر المضطرب الذي يهذي تحت تأثير الصدمات المسمومة والعثرات المتواصلة ، فان جوهره الحقيقي لا يتغير ، بل إن خياله الرحب الواسع يحتفظ دوماً برحابته ، وطلعته الغامضة المهابة تحتفظ دوماً بهيبتها وجلال غموضها .

ولكن الحادث الذي حدث لامرأته بدّل هذه الاشياء تبديلاً ، وقلب كيان ادغار رأساً على عقب ، وجعله ، منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي اطل منه على مصير زوجته ، ينوء بالالم ، ويرزح تحته ، فلا ينهض بعده ابداً .

وقع الحادث مساء يوم من ايام كانون الثاني عام ١٨٤٢ : كانت فرجينيا تحب الغناء على ايقاع القيثار ، ونحن لا نعرف بالضبط كيف كان صوتها ، ولكنه كان يسحر ادغار وينقله الى دنيا غير

دنيانا ، وهو الذي حمل قرينته ، من تلقاء نفسه ، على مراس الموسيقى واولعها بها ، وهيأ لها جوّ معاناتها .

في ذلك اليوم اخذت فرجينيا تغني ، ثم توقفت فجأة عن الغناء ، وتدفق الدم من حنجرتها : ذاك اول نزيف رئوي . وكانت صعقة ادغار من الشدة والاضطراب ما لا يصفه قلم .

إلا ان الاميرة ماري بونابرت عرضت لحالة ادغار في هذا الموقف المشجي وحللتها تحليلاً عميقاً اذ اشارت الى ما اعتمل في ذهنه لحظتئذ ، وما عاوده من ذكريات وصور ، فكانت ذكرى امه التي قضت على اثر نوبات كهذه اول ما طرق مخيلته ، فما كان منه إلا ان دبّ القنوط المظلم في نفسه ، وخالجه اليأس دفعة واحدة من حياة زوجته المصدورة ، فأمه المصدورة اصيبت بهذه الاعراض التي بدت على قرينته !

تحولت حياة ادغار بعد هذا الحادث الى سلسلة اضطرابات فكرية ونفسية ، واصبح يجد من العبث ان يعيش ، وان وجوده ضربٌ من « اللغو » الذي لا طعم له ولا لون ولا رائحة ، أيعيش لتتغذى مآسي الايام على عمره ؟ ام ليخلص من تجربة قاسية الى تجربة أقسى ؟

ها هو يشهد نزاع زوجته البطيء الذي دام اربع سنوات ، وكلما شاهدها احس بالموت يأخذ بخناق دنياه من جهاتها الاربع ، ويترعها بسموم الشك والحيرة والقلق والعذاب ، ويسبل عليها ظلاً قاتماً من العبوس الادكن الذي تودّ النفس ان تفرّ منه وهو لاصق بها ، ملازم لها !

ولم يكن من ادغار ، ازاء هذه الحالة التي لا نستطيع ان

نتصورها على حقيقتها ، إلا ان راح يجهد في التهرّب من نفسه ، من منزله ، من زوجه ، من افكاره ، ويعمل ما امكنه العمل على نسيان الحياة : إما في السكر ، وإما في النوم ، وإما في ارتياد الاماكن المعزولة ، ومعاشرة الغوغاء ممن نبذتهم الهيئة الاجتماعية ، او ساقتهم ظروفهم الى بؤرة الفساد والتعاسة !

ومما يحكى عنه انه تذكر مرةً ، وهو تحت وطأة السكر الشديد ، حبيبته السابقة ماري ديفيرو التي كانت تسكن «جرسي – سيتي» فترك نيويورك وقصد اليها . وتروي هي في مذكراتها انه وصل كالمجنون ، وانهال عليها بالشتائم وراح يؤنبها لزواجها من غيره ، ويصرخ بوجهها انها تحبه هو ولا تحب زوجها ، حتى اذا افرخ روعه ، وسكنت ثائرته قدمت له الشاي ، وتناولت الغداء معه بسرعة هائلة . ومضى بعد الغداء كالضائع لا يلوي على شيء .

هذه حكايةٌ قصتها علينا ماري ديفيرو من انباء ادغار عهدَ انهيار آماله في زواجه . ولا يبعد ان تكون صحيحة ، كما لا يبعد ان تكون مختلقة ، ولكنها الى الصحة اقرب . وينبغي لنا ألا يغرب عن بالنا ان اكثر الذين اتصلوا بشاعرنا وكتبوا سيرته كانوا يخضعون – وهم يكتبون – لجوٍّ اسطوري ، فلا يجوز الاطمئنان لجميع التفاصيل التي يذكرونها إلا بعد تمحيص دقيق .

وتلك هنةٌ من هنات التاريخ حين يعرض للعظماء ، فانهم يتحولون في مدى اعوام الى « اسطورة » ، ويُتخذ عنهم فكرة واحدة لا تحول ولا تزول . اما الاسطورة « البووية » ، فهي تتألف من اشياء حقيقية هي في طبيعة ادغار بو ومزاجه ، وأخرى مصطنعة ، حاكها خيال المتخيلين في إطار ما يعرفون

عنه وما يسمعون .

في عام ١٨٤٥ اشتدت وطأة المرض على ادغار نفسه ، فقرّر اعتزال الحياة الصاخبة في المدينة ، وسكنى الريف . وكان قراره هـذا من اجل فرجينيا اكثر مما هو من اجل شخصه . فهاجر بأسرته بادىء ذي بدء الى « تورتل باي » على الضفة اليسرى لنهر الايست ، وانتقل من بعدها الى « فوردهام » ، وكانت يومذاك جدّ قريبة من نيويورك . ولم يكن يعكر على حياتهم صفاءها سوى تلك الفاقة المرّة التي تعيش فيها الاسرة ، رغم ان مسز كليم رتبت المنزل واظهرته أنيقاً بما اسبغت عليه من نظافة وحشدت في سبيلها من جهود . وكل مواردهم كانت في ذلك العهـد ما تخيطه تلك العجوز من ثيـــاب الفقراء ، وهو مورد اضأل من ضئيل لاعالتهم وتطبيبهم ، حتى انه اتفق لهم مراراً ان باتوا غرثى لا يجدون ما يأكلون ، فكان من جيرانهم في الحي ان يتصدقوا عليهم بين وقت وآخر بارسال بعض المؤونة والوقود .

إزاء هذه الحالة القاسية المؤلمة ، اظهر ادغار تململاً لا حد له ، وبدا عليه العذاب النفسي العميق بشكل غريب خارق ، الى انسياق في جو من « اللامبالاة » اغرب ، فكان متألماً وغير عابىء بالالم في آن واحد . وكيف لا يتململ وهو الذي اعتاد ، منذ نعومة اظفاره ، البذخ والترف ؟ وإنها لمصيبة عظمى ان يضطر المترفُ الباذخ الى حيـاة من العوز والاملاق ، هي الى التسول أقرب ! فالمترفون لا يحسنون التمييز بين الضروري والكمالي ! يُضاف الى ذلك ان خيال الادباء يحملهم بصورة طبيعية عـلى الانفاق دون

حساب ، إما استجابة للحس الجمالي ، وإما لان ولعهم بالحياة وحبهم لها ، يدفعانهم دوماً على الاستزادة من لذائذها والاستمتاع باطايبها. هذا ... بينما نجد حب العمل وحب الحياة يلتقيان عندهم ، ويتمم الواحد منهما الآخر . فالاقتصاد ممتنع عليهم، مستحيل بالنسبة اليهم، والفاقة نفسها لا يتأتى لها ان تشفيهم من « داء البذخ » الكامن في قرارة نفوسهم . واذا انت رحت تتقرّى الطبقات الاجتماعية ، لوجدت ان افقر طبقة بالبخل والبخلاء هي طبقة الادباء ، عكس ما هو الامر عند المصوّرين ، لان استعمال الالوان يمثل لعينيهم شكلاً مادياً بارزاً للانفاق الكمالي الذي يمكن الاستغناء عنه ، ما في ذلك ريب !

ولقد كان رُوّاد فوردهام وزوارها يذهلون حيال ذلك الفقر المدقع الذي يظهر على منزل ادغار : كانت فرجينيا تنام على سرير من قش ، ولم يكن لديها لحاف تتقي به البرد وإن كانت أغطية السرير بيضاء ، وإنما كانت تلتحف بالمعطف العسكري الكبير الذي ناله زوجها عهدَ جنديته واحتفظ به ، وعلى صدرها هرّة مسكينة تنقل اليها حرارة جسمها وتشعرها بالدفء ، وهو دفء على شكل من الاشكال .

كان بو نفسه مريضاً في هذه الاثناء ، وإذ ذاك دخلت حياته امرأة جديدة هي ماري — لويز شيو ، جاءت تعالج فرجينيا إبان اشتداد مرضها ، لانها كانت تمرست بالطب والتمريض عهد دراستها ، وزارته كذلك حبيبته القديمة ماري ديفيرو . واليك حكاية هذه الزيارة كما روتها هي في مذكراتها . قالت : « وجدت فرجينيا عشية وفاتها جالسة في الصالون . فسألتها : أما تشعرين

بتحسن في صحتك اليوم؟ وجلست الى جانبها على كرسي طويل ، وكان السيد ادغار جالساً في الجهة المقابلة ، ثم اخذتْ يدي التي كانت في يدها ، وضمتها الى يد ادغار وقالت : « كوني يا ماري صديقة إيدي ، ولا تهجريه . فقد كان دوماً يحبك . أليس كذلك يا إيدي ؟ » وكنا نحن الثلاثة وحدنا ، إذ بقيت مسز كليم في المطبخ » .

الواقع ان فرجينيا كانت — كما يرى القارىء في حكاية ماري — على جانب كبير من الطهر والسذاجة وطيبة القلب ، مما حدا الرواة والنقاد على السخرية منها والهزء بها لما اظهرت من تسامح مع ادغار بشأن علاقاته الغرامية السابقة !

وفي صباح اليوم التالي في ٣٠ كانون الثاني ١٨٤٧ ، أخرجت فرجينيا تِركتها المخبأة وراء مخدتها ، وهي صورة لادغار ، وعلبة حُلى صغيرة كانت فيما مضى لاليزابت ارنولد ، ورسالتان من مسز آلان ، وسلمتها لماري لويز شيو . فلما اقبل الليل ، لفظت آخر انفاسها ، وكان موتها هادئاً ، لم يطل فيه النزع ، ولا رافقه اضطراب .

وذهب ادغار مع حماته بشيعان وحدهما فرجينيا الى مقرها الاخير ، وكان البرد قارساً لبس معه بو معطف الجندي الذي يمثل له رمز الاخفاق في حياته . وهناك ... في مقبرة الكنيسة المرممّة ، كنيسة فوردهام ، لقيا ماري ديفيرو ومسز شيو ، تنتظران الجنازة .

وعند عودة الجميع الى القرية ، عرضت السيدة كليم على ماري ديفيرو ابتياع كشتبان فرجينيا ، لانها تفكر فيما عسى ان تأكله

غـــداً هي وصهرها . ولكن ماري لم تكن من الثراء بحيث تبتاعه !..

ذاك ، هو نصيب النفوس الكبيرة في اغنى بلاد العالم !

فرانسز أزغود

لنقف قليلاً نتأمل محيا فرانسز س . أزغود كما وصفه لنا عارفوها : نحن امام امرأة انيقة اللباس ، باذخة المظهر ، ولكن بتواضع يمازجه ضربٌ من الاغراء اللطيف . اما وجهها فذو شكل بيضوي خالص ، وأنفٍ مستقيم ، وفم رائع تظهر عند طرفيه « غمّازات » ناعمة ، وعلى رأسها عصبةٌ سمراء ، او تبدو لنا سمراء ، يختفي وراءها كل شعرها ، ولا يبين معها إلا اطراف اذنيها ، ولكن الفاتن الاخّاذ في طلعتها هو النظرات ، فعيناها نجلاوان مدورتان وممتدّتان في آن واحد ... تمتدان نحو صدغيها كما يمتد السهم ، تحت قوسين من حاجبيها الجميلين المتساويين .

فاذا رجعنا نفكر في ادغار ، وجدنا ان شكل هاتين المقلتين يعيد لاذهاننا اشياء نعرفها . اجل ! نعرفها ، فلا سبيل الى الضلال : هذه العيون تذكّرنا باليزابت بنّو ، وهذه الاجفان تشبه جفون فرجينيا ، بل هذي هي عينا « ليجيا » بطلة القصة الخالدة التي لا يحفظ منها قارؤها غير وصف العينين والنظرات ... او هي العيون التي احبها ادغار في جميع النساء اللاتي احبهن ، وجميع البطلات اللاتي خلدهن في اقاصيصه وقصائده ، حتى لنحسبهن اشباحاً متشابهة ، لهن عيون مغناطيسية ، وليس فيهن غير عيونهن . تأمل هذا الوصف :

« ... امـــا عيناها فلا اعرف لهما مثيلًا حتى في ابعد العهود الغابرة . لقد كانتا ، على ما اعتقد ، اكبر من العيون الانسانيـة المعتادة ، فهما مشروحتان على افضل وأجمل ما تكون عينا الغزالة . بيد ان هذه الميزة فيهما لم تكن لتبلغ ذروة فتنتها إلا بتقطع ، اي في حالات النشاط الروحي ، عندما يدرك اقصى حدوده .

« كان جمالهُا في هذه الحالات ، كما يبدو لذهني المنقد ، جمالَ كائن علويّ أقبل من فوق الارض ، او عاش خارج آفاقها ، او هو جمال حورية الترك الاسطورية ، فأجداقها سوداء يلمع سوادها على اسطع ما يكون اللمعان ، ترف عليها اهداب طويلة . وحاجباها يرتسمان من فوقها ارتسامة يشوبها اعوجاج في الخطوط خفيف ، ولونهما لون الاحداق والاهداب . بيد ان « الغرابة » التي كنت اقع عليها في العيون شيء مستقل ، منفصل عـن شكلها ولونها وائتلاقها ، فهي معنى ، يُعزى اكثر مـا يعزى ، الى « العبارة » التي اطالعها فيها .

« عبارة ! آه ... كلمة ليس لها مدلول ! نغمٌ خالص ! ارتفاع رحب ! تنحدِرُ عنه جميع معارفنا المادّية ، ويسقط من حسابه جهلنا الروحاني ! عبارة تقولها عينا ليجيا : كم مرة فكرت فيها وتأملت حروفها طوال ليلة من ليالي الصيف ؟.. تأملتها احاول ان اسبر غورها ، وألج قرارة قرارتها ! ترى ، ما هو ذلك الشيء الذي لا اعرفه الكامن في عيني حبيبي ، ذلك الشيء العميق ، الاعمق من بئر ديمقريطس [١] ؟ ترى ما هو وما كان ؟

١ ديمقريطس : فيلسوف يوناني عاش في القرن الخامس قبل المسيح . كان يضحك دوماً من بلاهة الانسان .

« لقد تملكني سحره ، واستحوذ عليّ هوى ملح لاكتشافه ، فأنا لا افتر هائماً ابحث عنه . هاتيك العيون ، وتلك الاحداق الواسعة ، المؤتلقة اصبحت تمثل لي نجمين توأمين ، وانا المنجم السادر أتعبّد ابداً في استشرافهما وتأملهما ... »

يقول الناقد انجرام — وقد مر ذكره آنفاً ، وهو من خيرة من ترجموا سيرة ادغار — إن قصة « ليجيا » مستوحاة من حلم رآه الشاعر وظهرت له فيه عيناوان تبرقان بشكل عجيب ... وهو إنما كان يحلم بمثل هذه العيون ، لان جمال النساء في نظره ، كل جمال النساء ، يكمن في العيون ! ولان هذا العاشق الذي تتصباه أهواء الروح اكثر ما تستهويه متعُ الارض كان يجد في العيون ما يجعله على صلة قريبة مباشرة بذلك الكائن الغامض ، الملىء بالاعاجيب ، الحافل بالغرائب ، الطافح بالاسرار الخفية ، الذي يسكن اعماق نفوسنا. وإذ ذاك ندرك ، بلا عناء ، سحرَ مسز ازغود في نفس ادغار الذي فتنه لحظة رآها .

كانت نيويورك عهدَ ادغار ، اي في اواسط القرن التاسع عشر ، آهلة بالنوادي الادبية ، وكان للنساء اليدُ الطولى في تلك الحلقات والاجتماعات التي يلتقي فيها الشعراء والشاعرات ، والكتاب والكاتبات ، والصحافيون والصحافيات . ولطالما سخر النقاد والمؤرخون من نساء ذلك الجيل اللواتي كن يمارسن نظم الشعر وكتابة القصة ويعطين آراءهن في الآثار الادبية كناقدات . وغفل اولئك الساخرون عن حقيقة لا لبَس فيها ولا نزاع حولها ، وهي ان جلّ ما في الولايات المتحدة من مدنية او حضارة ، إن

لم يكن كله ، إنما جاءها عن طريق المرأة وولد فيها على يديها ، وكان ثمرة افكارها وجهودها .

وراق هذا الوسط النسائي ادغار ، على الرغم من الحقارات والصغائر والنقائص التي يعج بها ، ووجد فيه متعة لا حدّ لها ، وسلواناً لآلامه واحزانه المتراكمة. راقه فيه اكثر ما راقه، انه تقبّله واقبل عليه احسن الاقبال دون سائر الاوساط التي كانت تنفر من مؤلف ليجيا ، وتوليه العبوس او اللامبالاة . وكان لفصاحته النادرة ، وأساليبه البوهيمية في التصرف ، وذكائه الفائق ، وسعة اطلاعه ، وقدرته البالغة على استرعاء انتباه النساء ، وجمال طلعته التي ما برحت تأتلق رغم الكوارث والارزاء – كان لهذه الاشياء كلها ، بل هذه الميزات والشمائل ، اثرها الاكبر في نجاحه لدى النساء المتأدبات الاريستقراطيات وتقربهن منه وإعظامهن لشأنه . وقد كتبت احدى هؤلاء الاريستقراطيات تقول : كان ادغار بّو يفضّل عشرة النساء المثقفات على عشرة الرجال . وذلك معقول ، لان ادغار كان يسترسل معهن في احاديث هي الى الشعر والاحلام اقرب، ويُخاطبهن كما لو كان يخاطب نفسه ، اي باسلوب منغّم رقيق يجدن فيه طلاوة ما بعدها طلاوة ... والرجال يضجرون من سماع مثل تلك الاحاديث والخطابات ، بينا ترى النساء يصغين لها مشدوهات مأخوذات ، فلا يُضِعنَ منها كلمة ولا يسقطن حرفاً ولا نبرة .

واذا نحن رجعنا الى دراسات بودلير وملاحظاته ، وجدناه يلح في ابراز « الجانب الفروسي » من طبيعة ادغار ، فلا يحيد عنه إلا ليعود إليه ، ولا يغوص في التحليل والتنقيب إلا ليخلص الى

تقريره . والواقع ان مؤلف ليجيا يمتّ ، في اكثر شمائله وخصاله ، بنسب واضح الى فرسان القرون الوسطى، الذين اتخذوا المرأة قبلة اعمالهم ، ومنتهى احلامهم ، وغاية غاياتهم [١] . وادغار انما كان فروسي النزعة ، لان اعراقه تضرب الى « السلت » ، وهم قبائل شمالي اوروبا عرفت فيما مضى بملاحمها الشعرية . وهل في الملاحم غير الحماسة والغزل ؟ ثم لانه نشأ في ولاية فرجينيا الاميركية ، وهي تمتاز عن غيرها من ولايات اميركا بما أنبتت من رجال غزلين ، واخيراً لانه ينتمي بفطرته وغريزته الى ذلك النوع من الشعراء الذين لا تشخّص لهم المرأة الجمال وحسب ، وانما هي تمثل لهم ايضاً ، كل ما يخلق صلة روحية وجسدية ، في آن واحد ، بين عجائب الكون وطبيعة الانسان .

وإنه لمن سوء حظ النساء ان لا يوفقن الى فهم سحرهن هذا في عيون الرجال ، ذلك السحر الذي أوحى ما أوحى من اساطير خالدة الهمنها على مدى العصور . وكان حظهن اسوأ فأسوأ عندما كن يقعن على رجال يشبهونهن فيما يوحون اليهن ، فقد عجز خيال المرأة ، منذ كان الى يومنا هذا ، عن خلق نماذج من الرجال يشبهون نماذج النساء التي خلقها خيال الشعراء من هيلانة بطلة هوميروس ، الى بياتريس بطلة دانتي ، الى جولييت بطلة شكسبير ، الى شارلوت بطلة غوته الخ ...

١ لا مشاحة في ان « عنترة بن شداد » ومن لف لفه من فرسان العرب ومشاهير عشاقهم ، كانوا هم الامثلة الرائعة على « الخلق الفروسي » وما يستتبع من مزايا انسانية وفضائل ادبية وخلقية ، وهم الذين وجهوا خيال الغربيين نحوها في الاندلس وصقلية ومن ثمة في اوروبا كلها .

ولقد كانت مسز ازغود احدى الشاعرات الناشئات في مدينة نيويورك ، وهي ابنة تاجر كبير من تجار بوسطن . تزوجت من رسّام اسمه « صموئيل ازغود » . وبدأت حياتها الادبية بنشر كتاب عام ١٨٣٩ عنوانه « باقة أزاهير برّيّة من اميركا الجديدة » . وكانت قد اقامت بضعة اعوام في لندن ، عادت بعدها الى نيويورك ، واحرزت صيتاً بعيداً في دنيا الادب ، ثم نشأت مراسلات بينها وبين ادغار بّو تدور موضوعاتها حول اشعارها . وكان ادغار في تلك الآونة لامعاً كناقد ، يتقرّب منه المؤلفون والناشرون ، ويحتك به الادباء الناشئون . وكانت الشاعرات يتمنين ان يتناولهن قلمه ، ويتحدث عنهن في فصوله النقدية . ولم يكن بّو ليتناولهن الا بالرفق والتقريظ والملاطفة ، لا لانه كان يعمى عن سيئآتهن او يغفل عن نقائص منظوماتهن ، بل لانه كان يعتقد ان « وجود المرأة » في الحقل الشعري يزيد في شاعرية العالم ، وينفض عليها لوناً جديداً ، ولذا ينبغي لنا ان ننظر الى القوافي والصور التي تخطّها يدُ امرأة بعطف و « سمباثيا » اكثر مما هي الحال مع قوافي الرجال وصورهم ، فلم يكن ادغار اذن « يراعي » اولئك النسوة الاديبات لانهن ترامين عليه ينشدن رعايته ، بل لان ادبهن كان يزيدهن في عينيه سحراً على سحرهن !

وكان بّو قد تحدث في احد فصوله عن مسز أزغود واثنى عليها ، فكتبت اليه وكتب اليها . بيد أنهما لم يتعرّفا ، كل منهما الى شخص الآخر ، إلا في الربيع من عام ١٨٤٥ ، وقد روت هي بنفسها حكاية هذا التعرف بصورة لا سبيل معها لمن يطالعها الا ان يتأثر بما اودعتها تلك المرأة من حرارة التصوير وعمق العاطفة .

وهذا يكشف عما خالجها ... حين ابصرته .

بيد أن الظواهر، كل الظواهر، تدلّ ان السيدة أزغود كانت هي البادئة بمكاشفة ادغار في... الحب، اذ لم يمض على اجتماعهما الاول اكثر من اسبوع او اسبوعين حتى ارتفعت علاقتهما الى أعلى درجات الحماسة الغرامية ، وحلّقت في سماوات من الشوق والحنين يرتد عنها الطرف خاسئاً محسوراً ... ها نحن حيال غرام ادغاريّ اوضح من سابقيه ، فسينكشف لنا ما كان يخفانا من تفاصيل ، وسنطّلع على اشياء ما كان لنا ان نطّلع عليها في غرام شاعر بشاعرة .

بدأت المكاشفات الاولى علناً ، ولكن كيف ؟

تكاشف العاشقان بقصائد متبادلة كانت تنشرها جرائد نيويورك تباعاً . وتلك طريقة في الحب تفضي حتماً الى « التدله » او « الكلف » الذي لا رادّ عنه من عذل او نصح ، ولا دافع له من ملل او تذمّر . فان تبادل الاشعار بين عاشقين كتبادل الرسائل عيناً وتماماً ، من شأنه ان يلهب العاطفة ويزيد تأجّجها يوماً بعد يوم ، لان المحب – رجلاً كان ام امرأة – يفقد كل شعور بالتبعة ، تبعة كلماته ، حين يجلس الى قلمه وطرسه يحبّر رسالات الهوى ، ثم يكون في حالة من الاطمئنان والاسترسال لا يفكر معها بالعواقب ، فهو يكتب كما لو كان يحدث نفسه ، بينا يختلف الامر فيما لو كان يخاطب حبيبه ، ويراه شخصاً ماثلاً لعينيه بما فيه من ثياب وحركات ونظرات واشارات والتفاتات . فالحبيبة ، او الحبيب ، كائن خياليّ حين نكتب اليه ، اكثر مما هو « وجودٌ » ملموس ، يفرض علينا ما يفرضه الوجود من قواعد

وليلاقات وحدود وقيود ، والمرأة التي يحبها العاشق في رسالة هي « العنصر النسائي » الخالد الذي يحبه الفردُ كائناً من كان ، في كل زمان ومكان ، وليست امرأة معينة يخاطبها وان كانت الرسالة متجهة اليها ، مقصودة في كتابتها ، مستوحاة من تعلقه بها .

على ان غرام ادغار بمسز ازغود كان من الشدة والعنف بحيث لم يرعَ فيه الشاعر تقاليد المجتمع ولا اعتباراته الاولية التي يرعاها كل إنسان عادي ، إذ ترك منزله في « برودواي » وسكن « آميتي ستريت » اي الحي الذي تسكنه مسز ازغود ، ليكون على مقربة منها ، ثم انتسجت مودة عميقة بين فرجينيا وشاعرة نيويورك ، ولم يستهجن احد هذه العلاقات والصداقات بين بو ومسز ازغود وفرجينيا ، لما شاع في المجتمع عنهم من شذوذ ، فأصبح الناس ينظرون ، الى هذه الحلقة الشعرية من الكائنات الانسانية ، بالعين التي تنظر هي بها الى نفسها . وليس ثمة من ريب ابداً ان ادغار ظلّ على إخلاصه وحبه ووفائه لزوجه فرجينيا ، واستمر يحيطها بالعناية ، ويبذل ما في وسعه للترفيه عنها ، ويضحي في سبيلها من وقته وراحته وأنسه ، ليوفر لها السلوان ، ويحييها في أمان . وكان ، الى ذلك ، يكرس ساعات طويلة لمسز ازغود يُناجيها ويحلم بامتلاكها ، ويداعب خيالها ، ويدغدغ أنانيتها ، ويستطير شوقاً اليها كلما غابت عن ناظره ، او بعُدت مسافة اللقاء . من تُرى يحزر اي الاثنتين من المرأتين كانت اقرب الى قلب ادغار ، وأعلق بضميره ، وأحب الى نفسه ؟ بل اي الاثنتين كانت اصدق عاطفة ، واوفر حظاً من السمو والطهر في هذه الفوضى الروحية التي كانت تتخبط فيها القلوب الثلاثة ؟ من يدري ؟ أترى ثمة احد يدري ؟

الغيرة ، بل بالعكس ، كانت تتلوها بنشوة وفرح ، لما تحس من ورائها بعظمة صهرها واعجاب كبار سيدات نيويورك به وبأدبه ، اولئك السيدات اللاتي كنّ يزرنه احياناً ويقدّمن بعض المعونة للمنزل .

وكانت من بين اولئك السيدات امرأة يقال لها « مسز إيلنّيت » ، توصلت الى اكتساب ثقة السيدة كليم ، وايجاد إلفة معها . وما هي إلا زيارات معدودات حتى اصبحت مسز إيلنّيت على اطلاع باسرار المنزل ، وتمكنت من تلاوة بعض رسائل السيدة أزغود الى ادغار . ومذ اتيح لها ذلك ، اسرعت كالبرق الخاطف تنقل الاخبار الى صديقاتها ، مما خلق في صفوفهن ضجة لا تعدلها ضجة ، ونشأت حول تلك الرسائل مشادة نسائية عظيمة ، اذ ألفت صديقات السيدة أزغود وفداً على غير علم منها ، وجئن يطالبن السيدة كليم بالرسائل ، فلم يمتنع عليهن ادغار فيما طلبنه ، ورضي اعادة المراسلات ، ولكنه ذكّر مسز إيلنّيت بان لديه مراسلات اخرى منها ، وقد ذهل لطلب السيدة أزغود اكثر مما اضطرب قائلاً انها لم تتنازل الى ادراك هذه القضية الواضحة ، وهي ان رسائلها تنطوي على اخطار لا تنطوي عليها رسائله . وكانت ملاحظته هذه من النُبُوّ بمنزلة ندم معها على ابدائها فيما بعد ، ولكن حدث ما لم يكن في حسبانه اذ سلم الرسائل لمسز إيلنّيت ، وجاءت من بعدها امرأة من قِبَل فرانسز أزغود تخبره انها لم تتسلمها ، ثم تدخل في المشكلة أخُ فرانسز السيد لوميس ودعا ادغار للمبارزة ، صارخاً لدى الرائح والغادي ان شقيقته أهينت وانه سيبارز من اهانها انقاذاً لشرفها .

ولما بلغت القضية هـذا الطور ، وتشعبت وامتدت ، نشأت حولها من الثرثرات والقضايا الفرعية مـــا اخمد ذكرها اخيراً ، ونسيها الناس ، ونسوا معها مسز ازغود ومشاكل حبهـا ، ولم تسفر تهديدات اخيها عن شيء سوى زيادة التخرصات والاقاويل مدة من الزمن ...

وعندما بلغت فرجينيا طور النزاع في مرضهـا كانت تنهـال عليها الرسائل المغفلة ، وكلها وشايات بادغار وسلوكه ، وإعلامٌ عما يقوم به من اتصالات مع النساء . واكبر الظن ان مسز ايلنّيت هي التي كانت تكتبها تسميماً لحياة تلك الاسرة البائسة .

مارى لويز شيو

كانت وفاة فرجينيـــا ضربة قصمت ظهر ادغار ، واوصدت دونه كل باب من ابواب الهناءة والراحة ، وألقت به من علياء النعيم الروحي المشرق الى هوة مظلمة من الكآبة ... لا نهاية لها ولا قرار . واصبحت حياته من بعدها تتسكع واهية متعبة ، في عتمة الشرور والاضطراب ، على اعتاب النساء ، وتتلوى بين الجمر والشوك هائمة سادرة ، فلا تستقيم في وجهة ، ولا تقر على حالة ، ولا تطمئن لارتياحة .

لقد كانت فرجينيا طفلة ساذجة ، نصف ذكية ، تجهل الحياة والناس ، ولكنها أوتيت من صفاء الفطرة وخالص المودة مـا جعلها ، في عيني ادغار ، « شيئاً » ضرورياً لا غنى له عنه ، ولا حياة له بدونه ، ولا وجود له الا بوجوده . ترى ما الذي شده اليها ؟ أهي سذاجتها ؟ ام هو اخلاصها ؟ ام طهارتها ؟ من يدري ؟ بل اي امرىء منـا يعرف لمَ يتعلق ذلك التعلق الشديد بكائن معين دون غيره من الكائنات ؟

اما التعريفات والتحليلات فقد افلست ، وارتدت خاسئة عن ادراك هذه الزاوية الخفية من زوايا النفس ، هذه الزاوية الضيقة اللامحدودة ، المظلمة المشعة في آن واحد ، والتي تجري في اطارها جميع الحوادث الجوهرية في حياتنا .

كان ادغار ، قبل فرجينيا ، يعيش في عالم موحش تغمره الافكار العادية وتملؤه التأملات المجردة الخانقة ، يتلمس الراحة في اكتافه فلا يعثر لها على اثر ، ويطوف ويطوف باحثاً عما يضمد جراحات كبريائه فيصطدم بما يجهز عليها ويمضي في اثخانها ، ويغوص في خضم الحوادث وراء ما يؤمن له الاستقلال ، ويوفر له اسباب البذخ ، ويصون عزته مع عشرائه وفي علاقاته مع الناس ، فلا يلقى غير الخيبة ولا يعود الا بالمرارة ... حتى اذا لقي فرجينيا استوى من حبها واخلاصها على عرش النعيم الروحي ، وبلغ ما يتوق اليه من طمأنينة وراحة بال .

ذلك ان فرجينيا كانت تنظر اليه باعجاب عميق ، وكانت تبدي له اعجابها بصورة عفوية تكاد تكون « صبيانية » . وهذا ما حمله على الاقتران بها واتخاذها شريكة حياة دائمة ، اذ لم يكن في وجودها شيء يروق عينيها غير « ادغارها » ، وكانت لادغار « قنطرة » يعبر عليها الى سلطانه وامجاده وافراحه ، واي رجل في الحياة يستغني عن مثل هذه القنطرة ؟ وهكذا ... بلغت تلك الطفلة ، بسذاجتها وطهارتها ، ما يبلغه غيرهـــا من النساء بالحيلة والمراوغة ، واكتشفت ، دون عناء ، سر السعادة الزوجية ، بمجرد غريزتها اي كأنثى تحب زوجها .

وكان من ادغار بعد وفاتها ان عاش في ذكراها ولذكراها فحسب ، اذ كان يلبس معطفه العسكري الذي تدفأت به اثناء مرضها ، ويمضي في الليل ، والجليد والصقيع يغمران الارض ، الى المقبرة ، يجلس قرب ضريحها ينوح ويبكي ويتأمل ...

وكان منه ان تعلّق ايضاً بامرأة رافقت فرجينيا طيلة ايامها

قررت مسز ازغود في احدى كتاباتها ان احاديث ادغـــار ورسائله كانت اجمل وابلغ وادنى الى الكمال الفني ، من قصائده وقصصه . والمرأة تميل بطبيعتها الى الاقتناع بان ما يكتبه اليها الرجل اجملُ من كل مآتيه واعماله ، اذا كان يحبها خاصة . بيد أن لدينا من رسائل صاحب « ليجيا » ما يكفي للحكم في هذا الموضوع : هنالك جموحٌ في العاطفة ، وحرارة في العبارة ، وتوثّب سحريّ في الاسـاوب ، وتقطّعٌ في الجمل يبعثـه النـــداء والاستصراخ والاستغاثة والضغط النفسي ، وروعة في تبيان التأثرات لا ترقى اليها حذلقته الفنية في قصصه ، ولا فخامة عباراته في قصائده .

اما احاديثه فليس لدينا مثالٌ او نصّ تتضح لنا فيه خصائصها. ولكن سامعيه رووا انه كان يستغرق ، وهو يحدث ، في مناجاة حماسية ، كأنما هو في حلم ، ويستعمل الكنايات الفلسفية ، ويلجأ كثيراً الى التشابيه والاستعـارات الشعرية ، دونمـا قصد منه او تكلّف .

غير ان علاقـة ادغار بمسز ازغود كانت تمر ، رغم نقائهـــا وارتفاعها عـــلى نداءات الشهوة الجسدية ، بحالات مـــن التوتر والاربداد لا يقويان معها عـلى التماسك . وإنه ليعسر علينا ان نصف تلك الاجواء المربدّة ، لما ينقصنا من معلومات عنها . وكل ما يمكننا ان نتخيله او نجزم بامكان صحته هو ان ادغار راح يطارد شاعرته ويراودها عن نفسها . ولا نعلمُ فيما اذا كانت قـد أسلست له قيادها ، أم انها استمرت في امتناعها عليه ، وهل كانت تخاف ، أم انه اظهر من الجموح ما لا طاقة لها على تلبيته !

كل ما نعلم انها سافرت الى « ألباني » ، ثم الى « بوسطن »

ومنها الى « بروفيدانس » ، وان بو لحق بها واستمر يكتب اليها ، حتى لقيها ، بعد لأي ، في بروفيدانس . وهناك ... ارتطم العاشقان كلاهما في الاشراك التي نصبها كل منهما للآخر ، وراحا يتخبطان دون ان يعرف الاول ما يريده بالضبط من الثاني ، او يعرف الثاني ما يبغيه من الاول . وانتهت هذه المعركة الغرامية بين العشيقين الى موقف ادق من سائر المواقف التي عرفناها في حياة بو ، وهو ان اغرت مسز ازغود عشيقها بحب صديقة لها هي مسز هويتمان ، فتعلق بها فوراً واخذ ينظم الاشعار في حبها ، وغاضب مسز ازغود وتركها منكسراً حزيناً .

اما كيف تركها ، فهذا ما سرد حكايته احد اقارب السيدة ازغود ، فقد روى ان ادغار تضرع لحبيبته في آخر لقاء ان تهرب معه ، وارتمى على ركبتيها ، وهو يجهش باكياً يناشدها ان لا ترفض ما عرضه ، ولكنها انسحبت بتعزز وكبرياء ، بعد ان أهابت برجولته ، وايقظت نبيل عواطفه .

هذه رواية لا نستطيع ان نجزم بنصيبها من الصحة ، ولكن اليقين هو ان ادغار سلك في ذلك الموقف كما اعتاد السلوك في اشباهه من حياته ، وأشباهه كثيرة ، فنحن نعلم ان شاعر « ليجيا » كان ينتهي دوماً الى ازمة عاطفية حادة مع كل امرأة يحتك بها . ولو كان رجلاً عادياً لما شككنا قط ان مصدر تلك الازمات هو الجانب الجنسي من الحب الذي يقوى مع الزمن ويشتد حتى يطغى على سائر الجوانب ، ولكننا إزاء مخلوق أصعب ما يصعب عليه هو ان يفترق عن امرأة هوِيَها ، كائنة من كانت ، وكائناً ما كان هواه بها وهواها به ، فالمشكلة التي نواجهها هي « النهاية » التي كان ادغار

نفسه يرتقبها لمثل تلك الازمة بينه وبين حبيبته ! أتراه كان غافلاً عن امرأته حين شدّ بمسز ازغود الى قلبه وندبها الى الهرب ؟ أم تراه سها عن ان السيدة ازغود امرأة ذات بعلٍ ولا يمكنها ان تلبي طلباته الرعناء ؟ أم كان في حالة من الوجدِ والصبابة لا يفرق في دجاها بين الابيض والاسود ؟ أم ماذا ؟

الظاهر انه لقي ، في عاطفة السيدة ازغود نحوه وإعجابها به ، ما حمله على التعلق بها حتى الهيام ، فأصبح لا يتصور الدنيا وهي خالية منها ، وأراد الاحتفاظ بها ، في اي شكل كان ، وأية حالة عرضت . هذا هو موقفه اول الامر ، ولم يكن للشهوة يدٌ طولى في امره معها ، لان امتلاك امرأة تظهر لنا الاكبار العميق وتضمر صادق الود ، وتعاملنا باحسن ما تكون المعاملة ، يمسي شيئا ثانوياً في نظرنا ، ولا يهمنا حينذاك إلا ان نحتفظ باخلاصها وإعجابها ومودّتها . اوَ كان عناد ادغار مع السيدة ازغود من هذا القبيل ؟ أم ان تقاطعهما جاء نتيجة موقف نجهله ؟

هذا تأويل لا يُرضي اولئك الذين اعتادوا اعتبار الحب « حاجة » نجهد في قضائها ، فلا بد لها ان تذوب وتفنى بعد انقضائها ، لتصب في محيط الركود والسكينة . وانا اعلم ان هناك تأويلاً آخر هو اضطراب ادغار بين غرام هـــذه وتلك من صديقاته او محباته ، ولكن الوقائع التي بين يدينا لا تشير الى شيء من ذلك ، ولا تومىء اليه ولو إيماءة خفيفة !

ثم اذا كان وضـع ادغـار ، في تلك الغمرة من الحوادث ، يبدو غامضـــاً معقّداً ، فان وضع فرانسز ازغود لا يقل عنه غموضاً وتعقيداً ، فانها لم تكد تقاطع بّو حتى استقبلت بترحاب

وبشر صديقه غريزولد الذي حمل على ادغار بعد وفاته حملات شعواء منكرة ، واظهر من ضروب اللؤم والخيانة ما لا يستطيع المرء ان يتخيله ، او يتخيل ظهور مثله من صديق نحو صديقه . وما كانت مسز ازغود من الغباوة بحيث يخفى عليها ذلك الشقاق الروحي بين غريزولد وعشيقها القديم ، بل انها كانت تعرف أتمّ المعرفة كراهية كل منهما للآخر ، ولا كانت ايضاً لتحب غريزولد وتوليه اخلاصها وهو اللئيم الحسود ذو الوجه النابي الجاف ، اذا صح انها احبت ادغار ، ذلك الشاب الوسيم النبيل الراقي .

هذا يدل على ان السيدة ازغود كانت هي ، لا ادغار ، تجتاز ازمة غيرة ، ويدل ايضاً على ان بّو هو الذي قاطعها وعاداها ، بعد ان اطلع منها على اشياء نحن نجهلها وهو وحده يعرفها ، فارادت النكاية به ، وإثارة غيرته حين عمدت الى الاتصال بأثقل الرجال على روحه ، وابغضهم اليه ، علّها تردّه بذلك الى حبها من جديد بعد ان نفر منها ... ومما يؤيد هذا الافتراض انها ابدت بعد موت ادغار من تعلق بذكراه ، وحنين لايامه وهواه ، ما اخرس غريزولد نفسه وألقمه حجراً .

ولكن صلة ادغار بفرانسز ازغود لم تنته عند هذا الحد من القطيعة والنفرة ، وراحت القضية تتطور وتتعقد على مدى الايام .

بديهي ان هذا الحب كان يتغذى الى حد بعيد على رسائل تبادلها العاشقان . غير ان ادغار ، وهو البوهيمي في حياته ، لم يكن يحتاط للحوادث ، فكانت رسائله مبعثرة هنا وهناك يتناولها من شاء من اهله ومعارفه . وكانت مسز كليم (والدة فرجينيا) تطلع عليها باستمرار ، دون ان تحرّك فيها شيئاً من الحقد او

الاخيرة ، هي السيدة ماري لويز شيو التي عُنيت بدراسة الطب ، واخذت تطبق دروسها بتمريض فرجينيا والسهر على صحتها ، ثم في رعاية ادغار نفسه في اثناء مرضه ، فهو إذ تقرب منها ، إنما كان يتقرب من ماضيه مع زوجته ، من امرأة لها الفضل في احيـــاء فرجينيا مدة اطول من المدة التي كان ينتظرها .

ولكن السيدة شيو ، وهي المتعلمة ، الممتلئة من قيمتها ، التي تحب التسلطن وتعشق السيطرة ، لم تكن على استعداد لمبادلته العاطفة ، ولا هي من التوقد والفطنة البالغة بحيث تقدّر ادغار وتهبه روحها وتمنحه إخلاصها .

الواقع انها كانت تعطف عليه عطفاً ، ولا تحبه حباً ... والحب غير العطف : الاول ينطوي على إعجاب يجد معه المحب لذة إلهية في التضحية بوجوده ، والثاني شعور خاص إزاء كائن محطم يدفعنا على ترميمه وإعادة بنائه الانساني . الاول استرسال مع الروح في اسمى متطلباتها وأرقى معانيها ، والثاني تلبية لأحاسيس يوقظهـا فينا عذاب الآخرين ، ثم يجد منها الفكر ولا يتدخل القلب في شأنها إلا قليلاً . الاول انطلاقٌ لا يبـالي ، والثاني يحسب ويجمع ويطرح ، لارتباطه الوثيق بالانانية الشخصية .

ولكن ادغار كان عندما اعتلق ماري لويز شيو في وضع من التشوّش والضلال لا يتأتّى له فيه ان يميّز القضـــايا ، او يدرك خفاياها ، فانساق في حبه الجديد انسيـــاقاً اعمى ، وطفق يلاحق تلك الطبيبة ويتبعها كظلها ، لدرجة انه كان يرافقها الى الكنيسة ، وهو الذي لم يدخل الكنيسة قط ، منذ نعمت اظفاره الى يومه ذاك . والحقيقة هي ان مسز شيو تمكنت من اخضاعه

وردته الى حالة اقرب ما تكون الى « العبودية » ، وامعنت فيه تحكماً واستغلالاً حتى وهن وذل وفقد احترامه لحياته ، بعد ان ناله ما ناله من الحياة !

على ان شاعرنا لم يكن لينتهي الى هـذه الحالة المفجعة لو لم يكن مريضاً ، فقد روت مسز شيو نفسها انـه ارتمى ذات يوم عندها ، ولم يقوَ على النهوض حتى اسرعت اليـه بالطبيب ، فقرر هذا انه مصاب بـ « داء القلب » ، وانـه لا يعيش إلا اياماً معدودات .

وكان من فضل السيدة شيو عليه انهـا اوحت اليـه بنظم قصيدته الرائعة العجيبة « الاجراس » التي يسمع المرء في كلماتهـا وتعابيرها رنين النواقيس ، حين يصغي لمن يتلوها عليه ، الى جلبة في موسيقاها ، وضوضاء في اجوائها .

اما الصلة بينهما فقد كانت عاصفة متصلة لم ينعم بها ادغار في كثير ولا قليل ، لان السيدة شيو كانت ذات طبع رصين معتدل لا اثر فيه للعاطفة . واذا كانت قد اقبلت عليه ، ورق قلبها لحاله ، فلأن عذابه وتألمه حرّكا في قلبها معنى « الشفقة » لا اكثر ولا اقل . ولكن متى كان ادغار يعرف الاعتدال في صلته بالمرأة ؟

لقد عاد سيرته مع مسز شيو ، وراح يقضّ مضجعها بآهاتـه وتأوهاته ، ويفتح لها آفاق الهوى والصبابة ، ويكتب اليها الرسالة تلو الرسالة يستعطفها حيناً ، ويطلب المغفرة حيناً آخر ، وهي لا تنظر اليـه إلا كما تنظر لأي مريض ينشد معونتها ، ويستنزل رحمتها .

ولما ضاقت به ، واستشعرت جانب الطمع بهـا في عواطفه ،

عزمت على هجره ، وكتبت اليه تنذره بالقطيعة اذا لم يكفّ عن ملاحقتها وإقلاق بالها ، فهي ليست مسز ازغود ، ولا تريد ان يلوك الناس اسمها كما لاكوا اسم فرانسز . أما يكفيه انها احتضنته بعد ان شاع عنه ما شاع ؟

هنـــا ... اصاخ ادغار وكتب جواب رسالتها جاء فيه :

«... أصحيح ، يا لويز ، انك تفكرين بهجر صديقك المعذب المسكين ؟ كنت اشعر بما يخالجك في امري منذ زمن بعيد ، منذ اشهر ! ولكن أيكون ذلك « تتمة » هاتيك الحسنات التي احسنت بها اليّ ، وكنت تقدمينها لشخصي بسخاء ما بعده سخاء ؟ لقد قرأت رسالتك ، وقرأتها ، وأعدت قراءتها ، ولم اصدق قط انك كتبتها وانت مالكة وعيك كله ! (انا اعلم انك فعلت ذلك وانت تذرفين دموع الحسرة والندم) .

« ... ان فؤادي لم يسىء اليك قط ، وان لك فيه منزلة لا ترقى اليها غير صديقة صباي ، والدة رفيقي في المدرسة التي حدثتك عنها فيما مضى [١] ... »

غير ان هذه الرسالة نفسها اشعرت السيدة شيو ان ما عزمت عليه هو الصواب ، فانقطعت عن ادغار ، وتركته لوحدته الاليمة المظلمة ، غير عابئة به ، ولا مهتمة لمصيره .

لقد كانت اعجز من ان تفهمه ...

١ يشير الى جين استانارد .

هيلين هويتمان

كان ادغار قـــد نظم في السنين الاولى من زواجه قصيدة « الغراب » ونشرها لاول مرة في صحيفة نيويورك الكبرى « إيفننغ ميرور » عام ١٨٤٥ ، فاحدثت دوياً هائلاً في الاوساط الادبية ، وتلقفهـا القراء بدهشة واعجاب ، وارتفع اسم إدغار من بعدها الى ذروة الشهرة ، واخذ النقاد والادباء وطلاب الجامعات يعلقون عليها ، ويتحدثون عنها ، ويتدارسونها ، الى ان حفظهـا حتى الفتيات ، وانتقل الاهتمام بها من الرجال الى النساء .

وبديهي ان النساء اللواتي اولينها رعايتهن كن الاديبات ، والشاعرات خاصة . وكانت شاعرة نيويورك ، مسز فرانسز ازغود التي تحدثنا عن علاقتها بادغار ، اول امرأة فاءت الى جمال تلك القصيدة ، وحدتها على التعرف الى صاحبها ، لمـا لمست فيها من روح ، واستشفت وراءها من عميق الفكر ورقيق العاطفة .

ولم تكتف مسز ازغود بالتعرف الى ادغار وحدها ، وانما ارادته على ان يتعرف ايضاً الى صديقتهـا الشاعرة السيدة هيلين هويتمان ، بعد ان حدثته عنها وعن اعجابها به . ولكن ادغار رفض ، واصر على الرفض .

غير انه اطلع ذات يوم فجأة ، بينا كان يقرأ صحيفة « الهوم جورنال » ، على قصيدة مهداة لقصيـدته « الغراب » من هيلين

هويتان ، هي :

آه ! ايها الغرابُ العجوز الحزين
المقيم على شاطىء الليل الحالك !
ايها الشبح ! ان آلامك
تتماوج وتضطرب وسط الاحلام
عند بابي اغلب الاحيان ،
وان ظلك القاتم ليمحو
ضوء القمر النائم على عتبة غرفتي .

روميو ! تحدث عن الحمائم البيض المجتمعة
مع الغربان الناعبة وسط الليل ،
ولكن رؤية جناحك الاسود يخفق
ويهوي مع الحمائم الصامتة
تجعلني أشهد منظراً ابدع واسمى
ينهال مدى طريق النور المفضضة .

أتريد اذن ايها الغراب الحزين الموهوم
ان تكون لسمعي وقلبي
أخلص غراب خفق بجناحيه صارخاً صرخة اليأس .
فليس طائراً ضائعاً في الغابة
طائرٌ يشاطرني التحليق في افقي الاعلى البعيد .

ومذ قرأها ادغار ، ولمس خلال أبياتهـــا تلك « الدعوة الصريحة » لمأدبة حبها ، خالجه نحوهـــا شعورٌ يشبه الحنين او الشوق ، ولكنه اغفل هذا الشعور ، ولم يبح به حتى لنفسه .

وحدث له ان ذهب مرة يتنزه في الليـــل ، ومرّ بالشارع الذي تقطنه السيدة هويتمان ، فابصرها امام بيتها ، يضيء طلعتها نور القمر . وبدت له ساعتئذ على اجمل وابدع ما يمكن ان تبدو ، فحيّاها ولم يزد ... وظل يتابع نزهته .

وبعد ايام من قصيدتها تلك ، ولقائها هذا ، سمعت « ماريا ماك إنتوش » ادغار يتحدث ، في فوردهام ، عن مسز هويتمان بحماسة واعجـــاب ، فنقلت ماريا ، وهي شاعرة ايضاً ، ذلك الحديث الذي سمعته الى صديقتها هيلين .

واوشك الطرفان : ادغار بو ، وهيلانة — ساره هويتمان ، ان يأتلفا نهائياً ، ويشتركا في حياتهما على صعيد الزوجيـة لو لم يلتق ادغار السيدة آنيّ ريتشموند وتملك عليه لبّه .

انى ريتشموند

لا نزال – على كثرة ما رأينا من عشيقات تعلق بهن ادغار – في حيّز الصداقة الغرامية ، ولما نعرف بعد وجه ادغار الصحيح في عالم الحب !

لقد كنا من شغفه بجين استانارد تجاه استشراف لحنان الام المفقودة ، ومن امره مع إليرا رويستر وماري ديفيرو حيال نزوتين طائشتين من نزوات الشباب ، ومن مواقفه مع فرجينيا وفرانسز ازغود وماري شيو وهيلين هويتمان ، امام صديق ينجذب الى نساء معيّنات بجواذب روحية وفكرية ليست من الغرام في معناه الادغاري الصحيح ، حتى ولا في معناه العادي المألوف !

اما وقد وصلنا الى « آنيّ » فسنجد انها هي ، هي وحدها ، اول امرأة وآخر امرأة احبها ادغار في حياته كلها من ألفها الى يائها .

دُعي ادغار الى « لاويل » لالقاء محاضرة في ١٠ حزيران عام ١٨٤٨ كان قد القاها من قبل في أسرة « لوك » وهم من اقارب الشاعرة فرانسز ازغود ، ونال ثمة إعجاب الحضور ، وافتتنت به يومئذ الانسة ساره هيود ، وراحت تتحدث عن جماله وفصاحته وسحر حديثه . فلما بلغ منبر الخطابة في لاويل كان الجو كله بما فيه ومن فيه من سيدات ورجال مهيّئاً لايقاظ عاطفة جديدة في

قلبه ، وإقحامه من جديد في مغامرة عاطفية ليس لها نهاية ... وهذا ما جرى بالفعل ، فهناك تعرّف الى مسز « نانسي لوك هيود ريتشموند » التي دعاها « آني » فيما بعد ، وأصبحت عروس ادبه ، اي أشعاره وقصصه معاً ، بلّه الرسائل الرائعة التي ازجاها اليها .

كانت نانسي ريتشموند في الثامنة والعشرين من سنيها . اما جمالها فقد وصفه ادغار في قصة خالدة ، هي اروع واغنى واجمل ما خطّ يراعه ، قال فيها : « ... ولما لم أجد جرساً اعلن برنينه قدومي ، قرعت الباب بعصاي . وما هي إلا لحظة ، حتى بصرتُ بشخص يتقدم من العتبة : شابة حول الثامنة والعشرين ، ناحلة او هي الى الهَيَفِ اقرب ، ذات قامة اكثر من متوسطة بقليل . وبينا هي تتهادى بخطوٍ لا سبيل الى وصفه لما يتخلّج فيه من تواضع ، ويبدو عليه من ثبات في آن واحد ، قلتُ في نفسي : « لقد وقعت هنا حتماً على كمال في الجمال الطبيعي الناعم ، اي على نقيض ذلك الاصطناعي » . وكان انطباعي الثاني الذي خرجت به من رؤيتها اعمق وافعل ، ألا وهو التحمس ، فأنا لا اعرف تعبيراً من تعبيرات الروح المغامِرة يبلغ من الدقة والغرابة ، ويسمو على الدنيا واوضاعها ، ما يشبه هذاك التعبير « الروائي » الذي يطل في عينيها ، ولا اعهد ان تعبيراً قبله نفذ الى اعماق قلبي مثل ما نفذ هذا ...

« لا ادري كيف يتم ذلك ، ولكن لنظرات العيون ، تلك النظرات التي ترتسم احياناً على الشفاه ، سحراً ، هو اقوى ما يشدني الى المرأة ، هذا ... إن لم يكن الوحيد الذي يسترعي انتباهي اليها .

« المعنى الروائي – شرط ان يدرك قرّائي كل ما اعنيه بهاتين الكلمتين – والانوثة شيئـــان متكافئان يقوم الواحد منهما مقام الآخر . والرجل ، إنمـــا يحب في المرأة ، كل ما يحب فيها ، انوثتها .

« ولقد كانت عينا آني زرقاوين ، وزرقتهما سماوية . وشعرها اشقر كستنائي : وهذا كل ما أتيح لي ان الحظ من جمالها ... »

كثيراً ما تعرّض ادغار للوم اللائمين ، وتأنيب المؤنبين من جراء « تراكم الاهواء » في قلبه ، اذ شاع عنه وذاع انه كان يحب اثنتين او ثلاثاً في آن واحد . ولكنا اذا اخـــذنا في دراسة اهوائه ، وتعمقنا في البحث ، وجـدنا انه لم يهوَ ، في قرارة روحه ، غير امرأة واحدة هي « آنيّ » . ولكن آني كانت متزوجة !.. ومهما قيـل عن هيامـه بهيلين هويتمان ، او عن ملاحقته لاليرا رويستر فان خيال آني اقام في علياء حياته يرف من فوقها صورة طاهرة ابداً ، بعيدة ابداً ، ومنيـةً لا تُنال ابداً ، وكان وجودها ، مجرد وجودها امام عينيه ، يخلق له جواً من الانس والطمأنينة ، لا يشعر به مع غيرها ، حتى اصبحت « ضرورة » من ضرورات حياته اليوميـة ، او حاجةً امسّ من حاجته الى الماء والهواء ... وما كان في آخر ايامه على هذه الارض ليسعَد الا بقربها ، او يهنأ بالحيـاة الا وهو على مرأى منها .

لكنه في ذلك التاريخ نفسه قال للسيدة هيلين هويتمان – وهي ارمـــلة مثرية : « انت اول هوىً لي واخر هوى ! .. »

وقد اشار احد المعلقين على هذه الحادثة الى ان ادغار كان يعتبر مسز هويتمان « تجسيداً ثانياً » او « تقمصاً » لهيلين استانارد .

اما موقفه مع آني ريتشموند فقد كان من الضيق والحرج ، بحيث لم يجسر على التلفظ بكلمة « حب » معها ، بل استمر يدعوها « شقيقتي آني » ويخاطبها باحترام عميق بالغ ، واذا كتب اليها كان السطر الواحد ينطوي على مرتين او ثلاث « آه ، آني ! » فهو لا يملك ان يخاطبها « عزيزتي ! » مثلاً .

والظاهر ... الظاهر ان ادغار وجد في آني ريتشموند ما يحقق رغبته المثالية الاولى في « هوى » لا عهد للانسانية به ، لحمته « الطهر » وسُداه « العذاب » يتراءى للنفس في « صفائه » الامثل نوراً تتمتع به ، وتحيا فيه ، وتذوب مع لألائه .

كان يريد فتاة يؤلف معها كائنين يتألمان معاً ، ويحلمان معاً ، ويعيشان معاً حياة شعرية صرفاً ، ويلجان حظيرة الموت معاً ، وينسى كل منهما نفسه مع الآخر ، ثم لا يغيب عن رفيقه ابداً ... تلك هي المطامح الحقيقية التي كان يطمح بو اليها في الحب ، وفي حب آني خاصة . ولكن آني ... متزوجة !

ومع ذلك ... مع ذلك ، فقد راح يضرع الى هيلين هويتمان ان ترضى به زوجاً . ورأت هذه ، في اوضاعه الغريبة ، وحالاته العاطفية المؤثرة ، ما حملها على قبول رجائه ، وتمت خطبتهما بشكل علني رسمي .

ووجد ادغار انه لا يستطيع بعدُ ان يتأخر ، وقد خطا هذه الخطوة مع هيلين ، فماد واضطرب ، واظهر من سوء الخُلق و « النرفزة » ما جعل ام هيلين تنظر لخطبة ابنتها منه بعين

السخط ، ولكنها رضيت اخيراً بعد ان ضمنت ثروة ابنتها وسجلت اموالها وعقاراتها على اسمها الشخصي !..

غير ان اضطراب ادغار لم ينشأ عن « هموم مادية » ، وانما احس او ادرك — بعد فوات الاوان — انه لا يحب هيلين كما كان يتصور . هو يحب آني ، وهيلين خطيبتـــه الآن ، وغداً زوجته ، فما العمل ؟

ثم ما العمل ، وزوج آني اخذ يُظهر استياءه لما يتهامس به غوغاء المدينة ، ويتناقله دعاة السوء من اخبار زوجته مع ادغار ؟ ما العمل ؟

ثم ما العمل وهذي مسز هويتمان نفسها ، الخطيبة ، تعلنه انها ترضى به زوجاً بشروط ... اولها ان يمتنع عن تناول المشروبات الروحية ، وثانيها ان لا يمس مالها بعد ان انتقلت ثروتها لحساب امها ؟

أجرى ادغار صيغة العقد ، قطعاً لدابر الاشاعـات ، ولم يفكر قط بثروة زوجته الجديدة . وترك نيويورك الى بروفيدانس حيث يلقي محاضرة يعود بعدها الى بيته وزوجه .

في اليوم التـالي بعد المحاضرة ، كتب رسالة لآني ... كأنما هو لا يفكر الا بها . وعلمت مسز هويتمان برسالته هذه او ربما ان حدسها اوصلها الى ادراك حقيقة موقفه لما جرى لها معه من احاديث عن آني نفسها ، فكتبت اليه انه بلغهـــا امر عودته للمسكرات ، وانها تعتبر نفسها في حل من تعاقدها معه .

الخفقة الاخيرة

كان ادغار كلما قرب من نهايته ، تعود به الذكرى ، في الوقت نفسه ، الى بدايته ، او على الاقل ، الى ايام صباه . فقد ذهب الى ريتشموند ، بعد محاضرته في بروفيدانس حيث اجتمع بآني . وهناك لقي ايضاً « روبير استانارد » ابن هيلين الاولى ، ورفيقه في جامعة شارلوتفيل . وحاول كذلك لقاء كاترين بواتيو احدى صديقاته في حداثته .

واننا لنجد في حياة الرجال ، كل الرجال ، ظاهرة غريبة قل ان نفطن اليها ، وهي عودتهم الفجائية الى ماضيهم ، خاصة عندما تقترب حياتهم من نهايتها . فهذا غوته ، مثلاً ، لاحقته في شيخوخته اطياف شبابه ، وتوالت عليه زيارة صديقاته ومحباته في اواخر ايامه . اما ادغار ، فانه هو الذي لاحقهن ومضى يبحث عنهن ، وهكذا ... استطاع في ايامه الاخيرة ان يلتقي الميرا رويستر .

ترك فوردهام في طريقه الى نيويورك عام ١٨٤٩ ، وفيها لقي مسز كليم ، والدة فرجينيا ، عند صديقته مسز ليويس التي مثلت هي ايضاً دور « صديقة غرام » باسم « ستيلا » في حياة ادغار . ولما ودع هذه الاخيرة قال لها بلهجة اليائس القانط : « احس كمن يشعر بالغيب، انني لن اراك بعد اليوم ابداً ، فاذا

مت ، ارجو ان تكتبي انتِ سيرة حيـــاتي . انت وحدك تستطيعين ان تنصفيني ، وانا واثق انك لن تُخفقي في اداء هذه المهمة . »

ثم ذهب الى فيلادلفيا لالقاء محاضرة عنوانها « المبـــدأ الشعري » . وكانت فيلادلفيا مشهورة يومذاك بمواخيرها وخماراتها ، فغاص فيها ادغار الى اذنيه ، ولم يخلص منها الا وهو في حالة يرثى لها ، حالة سكران متعتع يهذي ويطوف الشوارع تائهاً من زاوية لزاوية ، يوقف المارة ويحدثهم عن امرأة بيضاء ، تلبس الثياب البيض ، ويسرد لهم كيف انقذته مرتين من الانتحار ، ويخوض معهم في احاديث طريفة يخلع عليها من بيانه وفصاحته ما يدهشهم . ولكن رجال الشرطة اوقفوه باعتباره طريداً ، ثم اطلقوا سراحه بعد ان عرفوه ... واستمر حتى بعـــد اطلاق سراحه ، يجوب الشوارع ، وفكرة الموت ... الموت المظلم تلاحقه وتملك عليه اقطار وعيه .

اخيراً ، قاده صديق له الى المرفأ ، ووضعه في المركب الذي اقلع به الى بلتيمور ، ومنها الى ريتشموند . وهناك لقي حبيبته الاولى ساره — إليزا شلتون ، التي كان قد افترق عنهـا نتيجة مؤامرة دبرها جون آلان والسيد رويستر . ترى لماذا رجع اليها الآن ، وكان بامكانه ان يزورها من قبل ؟

هـذا ما نجهله . غير اننا نحسب انه تذكرها فجأة ، وهو يبحث عن « ملجأ عاطفي » يأوي اليـه ، هذا الملجأ الذي أعيا عليه نيله ، وعاش حياته وهو يعدو وراءه ، ويعدو ... عبثاً .

وكان منه ، عندما دخلت عليه في صالونها الفخم ، ان صرخ

من اعماق فرحه : « أصحيحٌ انك انت إلميرا ؟ » أما هي ، فقد شعرت بفرح مماثل حين رأت أن عاشقها القديم ما انفك يحمل لها في قلبه تلك العاطفة ، بل ربما كانت تنطوي هي نفسها على حب له دفين . على انها ، مهما يكن امرها ، استقبلته كما لو كانت دوماً تحبه .

وما هي إلا برهة من لقائهما حتى اتفقا على الزواج ، لان زوج إلميرا ، السيد شلتون ، كان قد توفي منذ زمن بعيد . واول ما فعلته ان وضعت ثروتها في المصرف ، تأميناً عليها ، متوسلة الى ذلك بمادة صريحة ، نصت عليها وصية زوجها السابق .

غريبٌ وايم الحق امر هؤلاء الامريكيات ، فانهن لا يفكرن ، مهما بلغ منهن الحب ، إلا في ضمان ثرواتهن وتأمينها . وما كان من العدل في شيء قط ان تسلك إلميرا هذا المسلك مع رجل تعرف انه لا يملك شروى نقير ، وقد جاءها ، بعد غياب اعوام متطاولة ، يخطب يدها ويرجو مشاركتها في حياته ... ولو كانت السيدة شلتون خُطبت الى رجل مغامر سخيف من رجال الاعمال ، لما أبدت تجاهه ذلك الحرص ، ولأولته كل ثقتها كائنة ما كانت اخلاقه ، وبالغاً ما بلغ شحه .

تلك هي ظلامة الاقدار ، فالذين يحملون كميات كبيرة من المال يصبحون موضع ثقة الناس ، وتنأى عنهم الريب ، ولو كانوا اسفل البشر همة وأقلهم شرفاً .

إننا نقول ذلك ونحن نعلم ان ادغار لم يكن يحب السيدة إلميرا — وهي الارملة — لمالها او لعقارها ، وإنما هو تعلقه بالماضي ، واسترساله مع صداقته الغرامية ، واستشرافه لحياة زوجية تملؤها

الذكريات القديمة ، كل ذلك دفعه على القيام بتلك الخطوة مع حبيبة له سابقة . ونعلم ايضاً ان قلبه ، على رغم هذه الخطوة او ما يشبهها ، كان معلقاً بآني ، فقد كتب الى مسز كليم بعد اجتماعه بالميرا يقول : « ... أعتقد انها تحبني بقوة وحرارة اكثر من أيّ امرأة عرفتها ، ولا يسعني بدوري إلا ان ابادلها هذا الحب ... » ثم كتب في التاريخ ذاته ، ولا يبعد ان يكون في اليوم ذاته ، هذه العبارة : « ... ينبغي لي ، على كل حال ، ومهما كلف الامر ، ان اسكن بلداً استطيع فيه ان ابصر آني . ان بي حاجة ملحة لان اعيش بقربها ! »

وهكذا ... استمر خيال آني يحول بينه وبين الزواج من إلميرا ، كما حال بينه وبين هيلين هويتمان . ولكن الخطبة لم تفسخ كما حدث له مع هذه ، وبقيت مسز رويستر تبث ، في رسائلها اليه ، ما يشير الى غرامها الصادق وعزمها الثابت .

وعيّن موعد زواجهما في ١٧ تشرين الاول عام ١٨٤٩ ، واخذ ادغار يعد العدّة للذهاب الى نيويورك . وقبل ان يغادر ريتشموند اتصل بكاترين بواتيو التي سألته ، وقد رأت شحوب وجهه : « متى اراك ثانية ؟ » فاجابها : « لن تريني بعدُ ابداً ... »

قيل عن ادغار انه حاول في الايام الاخيرة من شبابه ، او من حياته على الاصح – اذ لا فرق بين حياة ذلك الشاعر وشبابه – ان يصطاد ثروة عن طريق الزواج من ارملة غنية ، فلذا راح يتسكع على باب هذه وتلك من صديقاته وينثر الوعود المتناقضة ، المتراكمة ، وليس له من غاية غير المال ! والواقع انه

ما من تهمة كاذبة ألصقت بانسان كهذه التهمة الشائنة التي ألصقها حساد ادغار واعداؤه بسمعته .

لقد اراد المسكين ، عند ما خطب هيلين هويتمان ، ان يجعل حاجزاً بين قلبه وآني ، ثم ان يصون ذكر آني وسمعتها من عبث الساخرين وتقولات المرجفين ، فلما ابدت مسز هويتمان جانب الاعراض ، وتحللت من تعاقدها معه ، رجع الى إلميرا ينشد عندها ما نشده عند هيلين ، ولكن المشكلة ... المشكلة الاساسية التي كان يعانيها ، روحية خالصة ، لا يرقى الى حلها غنى في المال ، ولا بسطة في الجاه ، ولا عرض من اعراض الدنيا الفانية ، المشكلة هي « غرامه » بآني .

لذلك ، نراه يجتاز في هذه الفترة من حياته مرحلة غامضة ، مرتبكة ، متقلبة ، يروح ويجيء ، ويقرر ويفسخ ما يقرر ، ويعد ثم لا ينجز ، ويفرح طوراً ويكتئب طوراً . وهو في ذلك كله ينتظر موعد زواجه .

وفي ٢٦ ايلول ، اي قبل موعد اقترانه بعشرين يوماً ، رجع من نيويورك ، وزار إلميرا ، وحدثها عما يستشعر من انحراف مزاجه وانهيار صحته .

وفي اليوم التالي ، بلا فاصل ، سافر الى بلتيمور ، ولكنه طاف في اثناء الليل على جميع صديقاته وودعهن واحدة واحدة ، حتى اذا اقبلت الساعة الرابعة من صباح ٢٧ ايلول ١٩٤٩ كان ادغار في طريقه الى بلتيمور .

وفي الثاني من تشرين الاول ساقه نفرٌ من اصدقائه الى خمارة . وفي الثالث منه ، لقيه احد اصحاب المطابع ثملاً منطرحاً

لا حراك به في حانة من الحانات المنزوية ، فدعا له بطبيب هو الدكتور « سنود غراس » الذي نقله الى مستشفى واشنطن ، وكتب عنه فيما بعد تقريرين متناقضين !

ونودي على اقارب ادغار الذين يسكنون بلتيمور فجاؤا يعودونه في المستشفى . بيـــد ان مدير المستشفى لم يسمح لهم برؤيته .

وفي السابع من تشرين الاول حوالى الساعة الخامسة صباحاً لفظ ادغار آخر انفاسه ، وهو يئن ويقول : « ليكن الرب في عوني ! »

مات قبل موعد زواجه بعشرة ايام ... مات ولم يشهد حبيبة قلبه آني !..

أيكون قد انتحر ؟

ذلك ما قيل ، لانه ودّع صديقاته كلهن ، ولكن من يدري ؟ أم تراه عرف مصيره لرهافة حسه ؟ من يدري ؟

فهرست

مقدمة المعرب ٣
تصدير ١١
من هو ادغار بو ٢١
جين استانارد ٣٦
الميرا رويستر ٤٣
ماري ديفيرو ٤٩
فرجينيا كليم ٦٧
فرانسز ازغود ٨٩
ماري لويز شيو ١٠٣
هيلين هويتمان ١٠٨
آني ريتشموند ١١١
الحفقة الاخيرة ١١٦

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الثـــامن والعشرين من اذار
سنة تسع واربعـــين وتسعماية والف .

818
P743Ye A